

اُدسون جھری

جنگل

اقاصیہ

لا توف صبری

خبر اللہ

افا صبر

نعم ، حينما أكتب شيئاً استشعر المتعة كما استشعرها حينما أقرأ المسودات .
وحالما يخرج هذا الشيء من المطبعة لم أعد أطيق احتماله ، أجده في الحال ليس كما
كنت أريده ، قسمة خطأ ، وكان يجب ان لا يكتب مطلقاً فأشعر بالغضب والحزن
(ضحك) وبعد ذلك يقرأونه الناس ويقولون : نعم انه رائع وكتب بمهارة ...
رائع ولكنه بعيد عن مستوى تولستوي او انه عمل جيد ولكن كتاب تورجنيف
الآباء والابناء احسن منه ، وهكذا يستمر الحال حتى يوم مماتي ، كل شيء رائع
وماهر ولا شيء آخر . وعندما اموت سيقول اصدقائي عندما يمرون بقبري : هنا
برقد تريجورين ، كان كاتباً جيداً ولكن ليس جيداً كتورجنيف .

من مسرحية النورس

لشيكوف

يوم الطفل

كان زامل يعمل بستانياً في حديقة البهو الرسمية ، يسلخ من بومه مايزيد عن عشر ساعات لجمع الاعشاب الذابلة وتنمية الخضراء وفتح الماء الى القنوات وتشذيب وترتيب المعوج والناشر من الاغصان والاوراد ، وينظر بين حين وحين من باب الفضول الى المستشفى حيث قرافل المرضى والمصابين يدخلون ويخرجون . كان يقول دائماً وهو يتنهد - ان الانسان مهما نعم بهذا البهو وحديقته الرائعة فإنه يذكر ان في المستشفى انساناً يتعذبون ويموتون .

مارس عمله هذا سنين طوال منذ أن طرد من مزرعته وأجبر على الهجرة الى بغداد ، وقد شهد مئات الحفلات تقام فوق هذه الاعشاب التي ينمىها ويتعهدا ويجعلها فنة للناظرين . كان المحفلون في كل مرة يفدون بأكمل زينتهم وناقتهم ، فيقتدون الاراتك ويؤدون ما يسمونه (فريضة الحفلة) وهي تناول اللذيذ المشتبه من الطعام ، والاخضر والأصفر من الشراب ، والمتع السانغ من الموسيقى حتى يملوا ويضجروا من الطعام والشراب والموسيقى جميعاً . هذا ما كان يقع في الأمس البعيد وما كان يقع في الأمس القريب وما يقع اليوم وما يقع في الغد . ترف وتبطر ونعيم .

كان زامل من سكان بغداد ، يسكن في مكان بعيد عن صخب المدينة ، وبعيد كذلك عن نظافتها وراحتها وكهربائها ومائها وأموري أمانتها . وراء سداد المرحوم ناظم باشا ، هذا الباشا الذي انقذ بغداد من الكلاب السائبة وشيد لها سوراً جامعاً مانعاً تراكم وراءه فيما قبل من الايام جحفل المهانين والمطرودين والمعذبين

كان زامل قد أنجب من زوجته الواحدة عشرين من البنين والبنات ، توفي أربعة منهم ، وهو أقل عدد تفقده عائلة وراء السداد ، ثم انه ينتظر ابنه الحادي والعشرين بعد شهرين .

كان قد تسامع من زميل له يعمل بستانيا معه في حديقة قاعة الشعب ، ان ثمة احتفالا سيقام بمناسبة مادعوه (يوم الطفل) وسوف توزع جوائز مالية مغرية سخية للعائلة التي تحوز اكبر عدد من الاولاد ، وقد نقل زامل الخبر الى زوجته ، وهى شبه عجوز نحيلة مخسوفة الصدر لها عيان ذكيتان ولسان ذرب وجرة تحسد عليها ، فسرت للفكرة وراودها حلم احراز مثل هذه الجائزة المشهية ، الا انها لم توفق تماما الى تكييف ذهنها بالشكل المقنع الى جدوى المحاولة . اذ كيف يجوز لها ان تحضر مثل هذا الاحتفال الذي يحضره الوجهاء والموسرون واولو السلطان والجاه ، وهى في احسن وصف قروية حافية موشومة الوجه تأكل سمكا تتنا وتمخط بثياها . ومع ذلك فلم تياس . كانت ذات عزم وجلد وطموح ، فكرت ان تعالج الامر بنظافة نفسها والتماس حمام عمومي تغتسل فيه بالماء الحار والصابون وتحشو قدميا بحذاء مستعمل تستر حفاءها ثم فكرت انها ليست بدعة بين النساء العراقيات فانها مع ميلاتها يشككن ثلاثة ارباع نساء البلد ، فحزبهن هو حزب الغالبات

وفكر زامل من جانبه باولاده الكبار المضيعين . فان ابنه البكر المتزوج قد ارتحل الى البصرة واشتغل حمالا في الرصيف ، وله ابن ثان يعمل في سيارة باص قلما يحضر البيت قد فقد عينه وهو صبي ، وله ابن ثالث هو جندى هارب يعمل خادما في مقهى وينام هناك ، ثم ان بقية اولاده يعمل ل بعضهم مع زمر البنائين ينقلون الطين ويصبون الماء على قوالب السمنت والبعض الاخر صيانا لا يعملون . ثم ان له بنتا متزوجة قد اختصم زامل مع زوجها وانقطعت ما بينهما من علاقات طيبة رغم انه يسكن مع ابنته في صريفة قريية . وقد تعهد زامل لزوجته ان يتدارك

الامور مع اولاده الكبار وابنته ويسوى ما بينهم من مشاكل ويبرأهم للاحتفال العظيم (يوم الطفل) وتعهدت هى من جانبها ان تعنى بالجنين المتوقع ولادته بعد شهرين وتفادى الاذى الذي قد يصيب بطنها ويحملها على الاجهاض فيقع مالا تحمد عقباه وتخسر العائلة عضوا منتظرا . ثم ان لها ابنة في عامها الثاني قد مرضت منذ شهرين ، وحملتها غير مرة الى مستشفى الحماية فلم تجدها المعالجة السقيمة قليلا فقطعت الرجاء في شفائها واسلمتها الى القدر . غير ان فكرة احراز جائزة يوم الطفل دفعها بقوة الى التماس علاج اجدى لابنتها . حملتها الى المستوصف مجدداً وكان هذه المرة مستوصف الهلال الاحمر في العلوية ، حيث يرتاده عدد اخف من النساء وتبذل فيه عناية ملحوظة ، فعرضتها على الطبيب وتوسلت اليه ان ينقذ حياتها ، ولم تستطع كتم غرضها فاعلنت للطبيب انها تعترم الاشتراك يوم الطفل فلديها من البنين والبنات ما يبلغ سبعة عشر ولدا اذا ادخلت في الحساب وليدها المنتظر . فابتسم لها الطبيب ومازحها وسألها ان كان لها ولزوجها واولادها من الجرأة وثبات الجنان ما يضمن احتفاظهم برباطة جأشهم في الاحتفال العظيم الذي يحضره من الشخصيات ، يجعل حضوره هو ، الطبيب المرموق شيئاً في غير مكانه ، ونصحها ان تسقى طفلتها الحليب وبعض عصير الفواكه وتجنبها الوساخة والذباب ، فصعدت لوصية الطبيب فدر مايسعفها الحال .

اما زامل فقد كتب لابنه في البصرة ان يحضر لبغداد للتهيو للاحتفال بيوم الطفل ، غير انه لم يشهد السخرية التي ارتسمت على شفتى ابنه حينما فهم موضوع الرسالة ، ومع ذلك فقد كتب لايه جوابا مفاده ان الاعمال كاسدة في الميناء ولا يملك مالا وان شاء فليبحث له دينارين يستعين بهما على التوجه الى طرفه ، فحول اليه زامل دينارين وحضر ابنه بغداد وصار يقاسم العائلة طعامهم وشرابهم ريشما يحل يوم الطفل ، اما عامل السيارة الاعور فقد حضر من غير دعوة ورجا اباه ان يسلفه

بعض المال ليتزوج ثم يخصم السلفة من حصته بالجائزة ، وكان هذا اشدا ولاده تحمسا وارتقابا ليوم الاحتفال . اما الجندي الهارب فقد حسب الامر الف حساب ، انه احتفال كبير وفخم يحضره عدد كبير من الانضباط الموكلين بمطاردة الجنود الفارين والقاء القبض عليهم فيتعرفون عليه ويضعون القيود في يديه وهو في غمرة النشوة فيكون الاحتفال وبالا عليه وبليته ، فطمأنه زامل انه سيخفيه بعباءته ويبعده عن انظار الانضباطين ، ثم شرع يتقرب الى زوج ابنته لاجل مصالحته ، وكان هذا عاطلا يحترف بيع اللبن الرائب في الكوؤس ويلقى من مضايقات مفششى البلدية ما يجعله يعتزل عمله ويلوذ براحة البطالة ، وحالما ان استوعب فكرة زامل طالب في الحال ان يخصص له معونة مناسبة لاستئجار دكان خشبي يبيع فيه المرطبات ويكفل لزوجه العيش الرغد الناعم .

كان زامل وزوجه يكونان أشبه بالمجلس الحرى الذي يقوم بواجب التعبئة للمعركة الفاصلة . فالجندي الواحد قد يرجح كفة النصر .

ولكن كلما قرب موعد الاحتفال صار الشك يتسرب الى أفراد الاسرة . كانت مسألة المظهر اللائق قد استعصت على الحل فلم ير أي منهم انه قد امتلك هذا المظهر اللائق المنشود مهما خدع نفسه وتكلف الاناقة .

كانت السترات العتيقة تتهدل فوق اكتافهم والسراويل السيئة التقطيع ذات الالوان الصارخة تضيق بخصورهم والاحذية المستعملة الملأى بالمسامير تحز في كعوبهم .. وكلما خرج احدهم الى الشارع واقترب من المواطن الحافلة بعلة القوم كما يقولون ووقعت انظاره على الحدود الموردة المتعافية والاقمشة الجيدة الزاهية والقامات المرتفعة الرشيقة بقوة اللحم والفواكه والمسكرات ، اخذه القلق واليأس . فان الاحتفال لن يضم وجودها غير هاتيك الوجوه ولا أقمشة غير هاتيك الأقمشة ولا قامات غير هاتيك القامات ، كان يخشى ان يكون عرضة للزوء والسخرية ،

وساد الاعتقاد ان هذا الاحتفال لا يشمل رهطهم الفقير البائس .

وجد زامل ان من الخير ان يضع حداً للتكهنات والاشاعات وخور العزائم ولذا فقل حمل ذات صباح جنسيات اولاده جميعاً مع جنسيته وجنسية زوجته وقصد مديرية الارشاد والتثقيف الصحي وعرضها هناك على الموظف الذي يفحص هذه الطلبات قائلاً له من غير تردد - نحن ثمانية عشر نفرأ ويحتمل ان تبلغ التسعة عشر بعد شهر - رفع اليه الموظف عينيه بغير أكثرات فادرك زامل معنى هذه النظرة غير المشجعة ، قال الموظف وهو يفحص الجنسيات - اللجنة هي التي تقرر - ونظره كرة اخرى كانما يود أن يقول (ان الاحتفال ليس لامثالك) والحق ان زامل خرج من لدن الموظف وهو اضعف املاً وقد اصيب في صميم كرامته .

وفي البيت هبوا عليه جميعاً يستفسرون ، فاوضح لهم زامل موقف الموظف تجاهه والاستهانة التي بدت في كلماته ونظراته وكان كلهم قد جرب مثل هذه المعاملة واسوأ منها حينما يكون من الضرورة القصوى مواجهة احد ماموري الحكومة فانقسموا الى جبهتين جبهة تصر على مواصلة الجهود رغم غطرسة الموظفين وترفعهم ، ورغم الاستقراطية كلها التي ماتفتأ تعلو وتشامخ عليهم . وجبهة اخرى ترى ترك هذه المسألة العقيمة التي لن يعقبها غير الاستهزاء وعدم المبالاة . وطال النقاش واتسع ، فقدمت ابنة زامل وحرصت اخوتها على بذل الجهود وبسط حالها السيء بسبب بطالة زوجها وطموحه الى فتح حانوت خشبي بشئ من المعونة التي تأمل نوالها من الاحتفال بيوم الطفل . فاشتطت الام على ابنتها ان تعني باختها المريضة وتسقيها دواءها وتطردها الذباب وتجنبها الوساخة حتى يوم الاحتفال ، وعاد الامل يداعب من جديد افراد العائلة . وماهي الا ايام معدودات حتي اتضح ان العلة التي تشكوها الطفلة فوق متناول عنايتهم ودائهم . كانت مصابة بالدقريا فهاجمتها الحمى وطرحتها من غير حراك ثم لفظت انفاسها وماتت ، فوضع موتها حداً لكل رجاء

منتظر ، ومضى زامل الى الموظف يبلغه موت احد ابناءه الا انه لم يستلم الجنسيات بل قال انه ينتظر مولودا بعد شهر يتلافى بميلاده النقص الذي حصل في العائلة .

تركز امل العائلة كله في الوليد الجديد الذي سيلج العالم الارضي بعد شهر ، فهو وحده قادر على انتشالها من هاوية اليأس ، فلم تعد زوجة زامل تراول عملا مضنيا شاقا ، وخلدت الى الراحة قدر الامكان وجنبت نفسها ركوب السيارات وحمل الاثقال . وكان زامل يشتمم الاخبار من رواد حديقة البهو من الخدم والكناسين ويبلغها الى زوجته . وكان اولاده جميعا يصطادون الجديد من انباء يوم الطفل وينظرون الى اهمهم متسائلين متى تضع هذه الام حملها الحادي والعشرون فيستريحون من عناء الوسواس . وكان معشر سكان الصرائف ينظرون الى افراد هذه العائلة الكبيرة نظرة خاصة كأناس مبتلين بواهمة تجاور الجنون قيمة بالتندر والتهكم وقال قائل منهم (ولسوف يحل اليوم الذي يركب فيه نوح واهله السفينة المنخورة فتعطس بهم عند ابواب البهو) وقال اخر (بستاني وحمال وعامل اعور في سيارة باص وجندي هارب يحمل سطلا في المقهى ، وام حمقاء تحسب نفسها موضع اهتمام الناس ، وعمال طين حفاة ، يحلم جميعهم بجائزة يوم الطفل فما اغياهم واخرقهم)

اما معنى هذا الاحتفال واهميته فقد بلغ مسامع بعضهم عن طريق الاحاديث في المقاهي المستقامة من تعليقات الجرائد ، انه تعبير عن حقوق الانسان واسعاد البشرية وتأكيد على قيمة الطفل ، ولكن واقع الحال يكذب هذه المزاعم الجرائدية ، فلا حقوق لانسان ولا اسعاد لبشرية ولا قيمة لطفل ، فليفضل المشككون ويرتقوا السداد . اما افراد عائلة زامل فقد عاشوا بضعة اسابيع وهم اسري مشاعر غريبة شاذة .. فلا يختصمون مع احد خشية ان يجرحوا او يقتلوا ولا يطيّلون المكوث في المحلات العامة ليلا لئلا يحدث ما يستوجب اعتقالهم ، كانت اهمهم تمنع في الراحة

ومدارة حملها ، فقد اوتى اليها من تضخم بطنها انها قد تلد توأمين فتكون العائلة قد سجلت نصرا كاسحا مجيدا . واقرب يوم الاحتفال وهى لما تلد بعد وتحددت الفترة باسبوع فان لم تلد ضاعت الفرصة . وقبل الاحتفال بيومين وبعد منتصف الليل وضعت زوجة زامل طفلين اثنين فتهللت الوجوه وتغشاها الفرحة . وفي الصباح هرع زامل الى الموظف واعلن انه سرور بالغ ان عدد افراد الاسرة قد بلغ تسعة عشر ، ولكن الموظف اعتذر عن التسجيل لان العوائل الكبيرة قد عينت كلها وليس ثمة مجال لاي تعديل . الا ان زامل واولاده وزوجته لم يياسوا فقدموا العرائض والتمسوا وتوسلوا وخرجوا جميعا يجوسون دوائر الحكومة ويسيطون شكايتهم حتى خصصت لهم البلدية منحة صغيرة غطت بالكاد النفقات التي انفقوها من اجل يوم الطفل ولم يكلف اى منهم ان يحضر الاحتفال الكبير الذي يستوجب الظهور بالمظهر اللائق .



خبز الحكومة

كانت ضوضاء القباقيب قد شرعت تتصادى فى أرجاء الرقاق وهى ايدان بافتتاح نهار جديد فى حي الفقراء . وكما تدعو الاجراس المؤمنين الصالحين لحضور قداس الفجر ، كذلك ضوضاء القباقيب تدعو الجياع الى التماس دكان الخباز . يرادف هذه الضوضاء مهمات وشتمات وعمليات نزع النعاس عن العيون والمبادرة بخفة عمال المناجم المسودين بالفحم عندما تصفر الصافرة ايداناً بهبوط المصعد الى اعماق الارض .

واول من يذكي حماس هذه الضوضاء ويعلنها اذاعة رنانة مدوية فى أرجاء الرقاق هى حمودة الارملة المرحلة ذات الاولاد الثمانية التى تحترف غسل الملابس فى مدرسة البنات الداخلية . كان خبز الحكومة لها بمثابة المن والسلوى اللذين أنزلهما الله تعالى على نبي اسرائيل الجاحدين

والمشقة . . . هل يمكن طيها فى كتاب ونسيانها . عند حمودة الخبر اليقين كما كان عند جبهة فى الجاهلية . هى تعرف اكداى النسوة النصف المغمضات ، وهى تعرف زمهرير الصباح وكيف ينفذ الى اعماق اعماق العظام ، وهى تعرف زمجرة الشرطي الذي يتمتع بكامل حريته ومطلق ارادته ان ييسط الرزق لمن يشاء ويمنع الرزق عن من يشاء وان يقدم ويؤجل فى جوع الجياع ساعة او ساعتين كانت حمودة ارملة ، ولضرب عنها صفحا فلسانا يريد بسط حكاية الارامل فانهم منذ الخليفة مكروبات حزينات يعانين الفصاصة والذل ولم يعدن عقلا اولئك اللذين ابتدعوا دفنها حية الى جوار زوجها المتوفى ، ان حمودة تخدمنا فى هذا

المجال باعتبارها اول من يعلن الحرب على المجاعة في الفجر الابلج الواضح
فيخف من ورائها جحفل الصباح الجائع (لذلك دكان الخباز)

كانت الاخرى تسمى مهية أو هيوبة ارق وافتن وادرج على اللسان كما
يدعوها زوجها اسماعيل ، كانت هي الاخرى تستجيب لبوق الحرب وتعد لها العدة
ولكن كثيراً مايسرقها النعاس ويختلس نعمة السمع من اذنيها . اما اسماعيل الذي
يلتوي في فراشه برداً ، فلا يمكن أن تغشه ظلمة او تخدعه ضوضاء قبقاب حتى وان
كان غير قبقاب حمودة

تهمد اسماعيل ولكز مهية لكزة رفيقة بمرفق ذراعه فلم تجبه بشيء ، فعاود
الكرة فاطلقت هذه المرة زفرة خافتة كالتي يطلقها السكران الذي اودت الحمرة
بكامل حواسه . صاح بها محذراً -- هيوبة الخبز -- فتفتحت عينها ورددت مذعورة
- الخبز - اجاب اسماعيل نعم الخبز هل تحسبين الامر هين الى هذا الحد - كانت
اللمحظات التي تتعاقب في محبة اسماعيل هي اللحظات التي تسبق غرق الفريق . هتف
بها في غضب - الخبز مابالك اليوم لانفهمين - اجابت مهية في صراحة يشوبها
الاسى والاسف - اسمع لي اليوم انا مريضة اشكو وعكة في بطني ورأسي يدور .

تمثل لاسماعيل في الحال الزقاق الطويل كله ، ومغادرة الفراش الذي بلغ
ذروة دفته بعد ساعات الليل الطويلة المثقلة بالانفاس الساخنة ، ثم زج نفسه في
معترك النساء المتدثرات بالاصواف المستهلكة ، انه لايطيق شيئاً حيال سلاطة
السننن ، وثمة الشرطي المهدد بالعصا . كل هذه الصورة القائمة توحى لاسماعيل
ايحاء لايمكن اغفاله ، انه مع التماس خبز الحكومة يفقد البعض من رجولته .
ولكنه الخبز الشيء الذي يفتك بالقبيلة الذرية ويحيلها الى رماد ويستهزي امر
استهزاء باولئك المقيمين للمآدب والناحرين للخراف والمهرفين لباريق الشراب .
نعم لقد كان ديناميتا غير مرة عبر التاريخ .

تزمّل اسماعيل بمعطف عسكري سميك ذي جيوب واسعة فاصطدمت يده
في احد الجيوب بورقة ضخمة فأخرجها بعناية متمماً في رفق - « العريضة كان
يمكن ان تدعك شر دعك بالخبز » ثم رفعها الى رف يقوم في جانب الغرفة وحفظها
هناك ريثما يعود - من دكان الخبز ، ثم اعتمر لمة صوف تصد الهواء عن تحف
الرأس وليس جوربه وحذاءه

ولما هم ان يخرج قال لمهية ناصحا - انتهي الى الاولاد ولا تدعي احدا
يكي - ولاجل ان يكسب اوامره شكلها الصارم ، تقدم الى مهية وهز منكبها وقال ،
- اني ذاهب الى الخبز - فاومات برأسها متفهمة

وعند الخبز خاض اسماعيل حرب المهانة مع جحفل الصباح الجائع . كان
الليل لازال يعتكر والنجوم اللؤلؤية لازالت ترتعش اشبه بالذبالات وآوت الكلاب
العاوية تحت دكان الجزارين واتقدت بعض النيران في المنعطقات المسقوفة وتقدم
للدفء العسس والمشردون واولئك النفر الغامض الذي ينبثق من حيث
لا يدري احد

واخيراً لا آخرأ يسرت العناية الالهية ان ينال اسماعيل كفافه من الخبز
اليومي فملاء به جيوبه الواسعة وعاد متسارع الخطو ، واذا ما بلغ البيت اتجه مباشرة
الى السرير ليعاود نومه . كانت مهية قد استيقظت على بكاء الابن الصغير فنهضت
عن السرير نصف نهضة وانحت الى وجهه وراحت ترضعه بثديها الصغير الناحل .
كان الحليب قد اتخذ شكل الخبز ، فهو الاخر يعز تدراره ويندر نيله . لقد كتب على
الاطفال ان يعانوا الشح كما يعانیه الكبار

قال اسماعيل - ليس لديك حليب كاف ، اي طعام يمكن ان يطعم هذا الطفل
تهتدت مهية - من اين يأتي الحليب . من يصنعه لي اللحم ولا رز ، لم نذق شيئاً منهما
منذ اسبوعين . هل تحسب ان الشاي يضع في ثدي الام حليباً

استوعب اسماعيل هذه الحقيقة وصمت ، الا ان رأسه واصل التأمل . نعم
كان يجب الا ينتجب هذا الولد ، ليس ثمة حاجة اليه انه ولد مع ارتفاع اسعار
اللحم والسمن والرز وحتى البطاطا والبقلاء ، هذه رزينة وبادرة سوء ، ولكنه قد
ولد وقد ادخل السجن مع الداخلين واقفلت من دونه الابواب وادرج اسمه في
سجلات السجن .

قال اسماعيل يحدث زوجته - من الافضل ان اكون في الوزارة في ابكر
وقت مستطاع . بعضهم يتقدمني كثيراً ويخلفني وراءه فانتظر دوري ساعتين من
الزمن

سألت مربية - ليست الابواب مشرعة فتدخلونها بسلام ؟
تهند اسماعيل - كلا ليست مشرعة او بالاحرى مفتوحة حسب النظام .
نصطف جميعاً واحداً بعد واحد في صف طويل جداً اشبه بالقطار ثم يسمح لنا
بالمرور ، ويتحتم على اولئك الذين يتقدمون الصف ان يحرسوا على اماكنهم فلا
يدعوا ثغرة ينفذ منها متسلل ويضع نفسه حيث يشاء . . انهم يتحاضنون . المتأخر
يحتضن المتقدم ويشده اليه ويتقدم الصف كله تقدماً وثيداً . وعند الباب يسألون
المراجع ويستفسرون منه وينظرون الى هويته واوراقه - كانت مراجعات اسماعيل
للوزارة بخصوص مطالبته بمبلغ صغير من المال ، حيث كان جندياً خدم عشر
سنين وبسبب من فقدانه النور في احدى عينيه فقد كلف بالخدمة المدنية كأن يسمح
الافنية ويشذب الاشجار ويعمل كمراسل لرؤسائه .

تأهب اسماعيل لمغادرة البيت فألقت عليه مربية نظرة فاحصة تلقىها الزوجات
عادة على ازواجهن قبل مبارحتهم البيت ، كأنما يفحصن مقدار الاهتمام الذي
سيؤتيه اليه المارة في الطرقات ، وخطر لها خاطر عجيب انه بعد حين سيكون
مضغوطاً بين رجلين يحصرانه كجانبى الكلابة ولعلمها يسويان اعوجاج ظهره

وبرفمان عنقه إلى مكانه الموزون بين الكتفين ، ولم يتذكر أي منهما ان العريضة لا زالت على الرف . حينما وصل الوزارة كان الصف قد امتد الى دائرة اسالة الماء وانحرف يساراً الى الجدار المحاذي لما كان يسمى بمدرسة المأمونية . ان عدد الواقفين يتجاوز المائة وجلهم فلاحون نازحون من المدن ، وعمال عاطلون ، وغمار كادح لا يستبين المرء حقيقتهم ، يحملون عرائضهم بأيديهم أو هي مطوية في عبوبهم وهنا انصعق اسماعيل لقد نسي العريضة في البيت . انها في الوزارة بمثابة صك الدخول وجواز المرور ومفتاح الابواب . عض ابهامه غيظاً وتسمر في مكانه عابساً مقطب السحنة يلعن الخبز الذي شغله ايما اشغال وصرفه عن استذكار عريضته . عليه أما ان يعود الى البيت ويحملها معه ، وهذه العملية تستغرق ساعتين واما ان ينتجى الى كاتب عرائض فيكتب اليه سواها . وهذه العملية تكبده مائة فلس . جميع اسماعيل - خبز الحكومة . اجل هو السبب .



هكذا يعيش

كان صباحاً مشرقاً بشمس أيلول الدافئة . وفي الجو لفحات من تباشير الشتاء قد تجرأت على غير عاداتها في كل سنة فلقت الهواء بقرصة محبة من البرد الذي طال انتظاره على الناس .

كانت الحركة في باب المعظم قد بلغت مداها . فحافلات الباص تتهادى في ابهة وخيلاء مدمونة مطيعة تلتمع قبضاتها النيكلية البيضاء والسواق في غرفهم الصغيرة منحنيين على عجلة القيادة يستقبلون يومهم الجديد بفتور واعتياد وزرافات من الموظفين الصغار يحثون الخطى في كل مكان ، اذ الساعة قد اشرفت على الثامنة وسرعان ما ترفع سجلات التوقيع .

ومن هناك طريق المستشفى تدب على ارضته جماعات من النساء في عباءات سود خشنة وزعالات جراحة تتمسح كعوبها بالارض والبعض المتسولين والمقعدين قد انطلقوا مع الفجر واحتلوا مواضعهم على الطريق . اثنان او ثلاثة منهم يرتلون القرآن بنبرة سريعة آية . وعلى الجانب الآخر تنهض قاعة الشعب في شموخ ورزاة وقد عجت على مسرحها ليلة أمس احدى الفرق المسرحية .

كان يوم سبت وقليل من الجرائد منشور على الارض ، جلس وراءها باعة صبيان ينادون عليها ويسمونها من مداعبات الريح . تقدم السيد كمال الديواني والقي نظرة متعبة على ما حوله وتسمر في اصرار لدى احد الباعة بطوله الذي يحسده عليه الاقزام وراح يتأمل في المناوين العريضة التي تتوج واجهات الجرائد . لم يرحب به الصبي ولم يلق اليه بالا . كان يعرف فيه زبوناً يقرأ ولا يدفع ثمن ما يقرأه

يتفحص الجرائد جميعها حتى يقع على ضالته مسجلا بين اونة واخرى بعض الكلمات على دفتر صغير وسخ ثم يعيدها جميعا سالمة نظيفة وينصرف . لم يجره اي من هؤلاء الباعة ولم يحل بينه وبين مطالعة الجرائد . كان البعض يرهبه اذ يبدو وحشا فظا والاخر يشفق عليه وقليل جدا من ينظر الى الامر كضريبة لا بد منها .

وقف في ترنح دائم قد اثقلت الخمرة رأسه من فرط ما احتسى طيلة ليلة امس حتى غاب عن وعيه واستلقى نائما في الوحل . مسح جبينه بكم سترته وفرك عييه وتطلع حواليه في ضجر . لو كان معه درهم واحد لاغناه عن الخروج في الصباح والثماس هذا الرزق الذي لا يتشرف به انسان ولكنه من غير درهم بل ومن غير فلس واحد . كل شيء نفذ من جيبه وتحول الى كؤوس متزعة بماء الصابون الرصاصي العميق احتساها في نهم كما تحتسى البالوعة مياه المطر .

همهم في استياء بعد ان فرغ من استطلاع الجريدة الاولى . الم بمت احد ليلة أمس . ثم أمتدت أصابعه الكثة الشعر الى جريدة أخرى . فمر مسرعا على اخبارها المحلية كما تمر الطيارة على معالم قرية صغيرة فلم يعثر على شيء ذي غناء فتجهم وجهه وتريد . تتمم في حق . ألم يمت مخلوق . الكل ينعمون بالعافية . خلق بناظره الى السماء . كانت رائحة زرقاء تتالق بضياء الشمس . عبس لها وخفض رأسه . لم تعد روعة السماء وضياء الشمس ذات معنى في نفسه . نظر صوب المستشفى فأبصر بتابوت من الخشب الابيض تنقله إحدى السيارات . ومركت من أمامه سيارة اخرى تحمل على سطحها تابوتا اتت به من الطب العدلي . اكتاب كمال وخاطب نفسه في مرارة - هاه هؤلاء يموتون أي نفع لي في موتهم .

بحث في كل أطراف الجرائد فلم يعثر الى رحمة ربه . وفاة . في ذمة الخلود . هو الباقي . أو سواها من الاستعمالات الاتقالية الى العالم الاخر . لعن الدنيا كلها احياءا وأمواتها ومرضاها وأصحاءها والمنظر حين على محفات الاسعاف والمتسقين

في خزانات الطب العدلي .

الجوع يندق طبوله في جوفه وصداع الرأس وانهار الاعصاب والحاجة الملحة الى النوم جعلت جميعاً من عينيه ثقيبن خامدين كليدين مغطيين بأجفان ذابلة متورمة لا تأتمر بأمر أحد . خاطب نفسه في غيظ متزايد - يبدو أن أرواح الناس قد غدت جد عزيزة اليوم ولم تفلح أساليب عزرائيل في اقتناصها - عرج مضطراً على أخبار المعينين والمرفعين والمنقولين الى مناصب اعلى من موظفي الدولة . يبدأ بكبار القوم وينتهي الى المكتبة والزامين . حلق في سرور « ترفيع موظف » قرأ الخبر التالي - رفع السيد سعدي حمودي في مديرية « م » من ١٢ الى ١٥ - هذا يكفي لنفقات الفطور - هتف كمال في أنشراح .

حياته كحياة الحدأة الجبانة لا تقتل ولا تستعدي انما تقتات على ما يميته غيرها . فان لم تجد غزالا نافقاً عرجت على الطير وان عز عليها الطير أكتفت بالجرذ والقنفذ والعصفور . أتجه نحو مديرية « م » في غير أمهال يرن في أذنيه أسم سعدي كما ترن أجراس الخلاص .

حذاؤه بلاكعب 'متهرى' بال من غير شريط يمسكه بالقدم، تتدلى فوقه وعلى ارتفاع عدة سنتيمترات نهايتا سرواله المدورتان اشبه بأنبوبي مدخنة وفوق هذا السروال سترة باسنة قد اتكأت في تداع على منكبيه وعنقه وما من شيء على ظهر البسيطة يماثلها في قدمها وتبرؤها .

لم يدبر في ذهنه أية خطة - للهجوم - بل ولم يحسب ان ثمة مانعاً يحول دون النصر فليكن غريمه شحيحاً مقتراً سمجاً وليكن عريداً سفيهاً مملقاً فالامر كله سواء . أنه يسوق قدميه بأطمئنان وثقة كطبيب مدعو الى عيادة مريض في اعظم حاجة الى طبه وعلاجه . وجد حضرة الموظف المرفع يجلس الى منضدة صغيرة حافلة بالاضايير الخضراء قد دس رأسه في كومة من الاوراق ينفخ فيها في حق

ثبت كمال فيه عينه • كان في وسط العمر كليل البصر رث الهذام من اولئك
القدامى الذين خدموا في ظل حكومتين عثمانية وعربية • لم يكن له عهد بكمال
الديواني ولا بأساليه - دلف اليه باعتزاز فوقعت انظار الكتبة على لحيته الفاحمة
وهيئته الزرية الباعثة على القرف والرية • حيا غريمه في صوت أجش سقط
مصدوعاً عميقاً مبالغ في جرسه المؤثر •

- تهانينا يا أستاذ بترفعكم الذي تستحقونه عن جدارة ولياقة • دمتم من
موظف نزيه ، أرجو لكم أطراد التوفيق - ثم تنحج في مكانه مستعيداً انفاسه المبهورة •
لم يجب سعدي بل تأمله بنظرة متضايقة تعب فوجد كمال ان من المناسب
أن يزيد ويوضح فأردف بلهجة ملاطفة رقيقة - وجدت لها فرصة يا أستاذ سعدي ••
وكما ترى أنني •• أرجو أريحيتكم .. كنت ذات يوم موظفاً أخدم الثقافة
والعلم .. لاداع للتفاصيل أرجو لطفكم .

سأل سعدي - الى أي راتب انني ترفعت . هل تدري ؟
اجاب كمال في مسكنة - كلها خير وبركة .. ليس المهم الكمية انما التقدير
تهند سعدي - التقدير نعم ياله من تقدير عظيم ، يأتيك بعد عشر سنوات خدمة
مضنية الى هذه المنضدة • ان اترابي تقدموني يا اخي بشوط بعيد وغدوا مدراء
ومفتشين - فتذكر الديواني بيتاً مناسباً للمقام ، بيتاً يحفظه من زمان قال بنبرة واضحة
شاعرية ..

تقدمتي أناس كان شوطهم وراء خطوى لو امشي على مهل
انبسطت أسارير سعدي ولاح الرضا في محياه ، هتف أحد الكتبة - انك لتستحق -
وعاد يرتل البيت العتيق في استحسان .

قال سعدي في تأمل - عشر سنين بهذا الراتب وخمس وعشرين سنة خدمة
ارتفعت خلالها اسعار الشاي والقهوة والبيض عشر أمثال •

أسرع الموطف يقول في نبرة تهكم - اذكر هذا لاولي الامر. لاولئك الذين يمنحونك الخبز ، لا لهذا المائل امامك .

همس الديواني في رجاء - سيدي انني جوعان
بحركة خاطفة تحركت يدان اثنتان ، نقلت الاولى مائة فلس من جيب قريب منها ووضعت الاخرى مائة فلس في جيب قريب منها كذلك ، فشكره الديواني من غير ابتسام ومضى في سبيله . وضع المائة فلس في مائدة حياته كما يضعون الفحم في القاطرة فاشتغلت وطنطنت بضع ساعات . ابتاع شيئاً من البورك وعلبة سكاثر وثقاب وأحتسى كأسين من الشاي الثقيل السيلاني في مقهى متواضع يعج بالحوذية والحمالين وراح يتشاغل بمراجعة قصائده العصماء التي أعسدها لرثاء الناس او تهنتهم . كانت هذه القصائد مخطوطة على ورق اسمر وسخ يعتبرها الديواني نسخاً أصلية ينقل منها الايات المناسبة لعمر المتوفي ومكانته وعمله مع المبالغة المتجاوزة الحدود . فالصعاليك القسول يغذون في مراثيه وتهانيه ابطلاً صناديد والمرابين الغشاشين أسياد ومقامات .

في مجالس العزاء . حيث يصطف عند الباب خط طويل من السيارات وينهض عند المنعطف شرطي فارح الطول ذو بدلة بيضاء لارشاد المعزين والسكاثر الصالونية تتقد على شفاه الخزانى والمجلس بأسره قائم حزين تتصاعد منه جمجمة وسعال والقاريء يتلو الكتاب على الدكة فاذا بكمال الديواني يقتحم المكان غير هياب ولا وجل . يخرج قصيدته وقد خطها على ورق أبيض صقيل ويروح يتنحج وبز جذعه مترنماً بأيات فاجعة لشاعر لا يعرفه أحد ، ثم يتقدم في خشوع فيسلم القصيدة لذوي المتوفي ويقبض اجره وينصرف . اما في ذلك اليوم فلم يمت انسان ذو شأن حتى خيم عليه الظلام .

كان مساء مبهماً على أعصاب الديواني فهو مايرح يتلوى في الطرقات ، قد نفذ الوقود من مائدة حياته ، تحلب ريقه للخمر ويثقل الصحو القاسي رأسه حيث

يجعله يرى كل شيء مسحواً تافهاً لا غناء فيه ولا ذوق ، ليس من مناصب الا ان يقوم بتجربته الاخيرة التي تماثل الكي في علاج الاعراب . في ثلاث مرات سابقة ترك العاصمة بضع ساعات وأرتحل الى القصبات المجاورة فأمتدح بعض المدراء ورجال الادارة ونال عطاياهم .

خرج الى باب المعظم وأقترض من بائع صحف درهماً واحداً دسه في يدي سائق سيارة فحشره بين صف من المسافرين الاعراب وبعد نحو ساعة من الهز والخض والقلقلة ، بلغ عند الغروب ناحية صغيرة تقع على الطريق ، فانزوى الديواني في مقهى من القصب والحصران الى جوار فلاح عجوز زوده بكل ما يعرفه عن شخصية مدير الناحية والمشاريع الاصلاحية النافعة التي تدور في مخيلته دون ان يخطو لتحقيقها خطوة واحدة .

يؤكد المدير ان ثمة معامل تفتك بالبطالة وتميتها ومستشفيات تشكو من قلة المرضى ومدارس تشكو ندرة الجبهة الاميين . ضمن الديواني هذه المشاريع في قصيدته العصماء وجر نفسه في ثقة الى بيت المدير فلقبه يتمشى في حديقة منزله الصغيرة وعليه روب شامير ثمين انيق .

بادرة محيا - دتم من رجل ادارة لا يشق له غبار ان الناحية تلج بمدحك وتنظر اليك نظرتها الى ملاك مخلص يقصم ظهر العوز ويسمح المرض ويزيل الجبل - واذا ما هم بقراءة القصيدة أمسك بيده مخدراً قائلاً في مزاح بارد - ياكمال الديواني لعبتك هذه لاتنطل على ، الافضل ان تقول انني شحاذ فنعطيك مانعطى للشحاذين ، اما الدجل فلا اريده .

كان مدير الناحية زميل الديواني ايام الدراسة الابتدائية ويحفظ عنه الاعيه ومكره وانسياقه في المسكرات ، واذا ما حصل على وظيفة معلم اطلق العنان لنفسه فصار يخمر في الليل والنهار حتى فصل وعضه الجوع وانتهى الى ما انتهى اليه من يؤس

وتشرد فصرفه مدير الناحية من غير أن يكرمه درهماً واحداً .

لقد عاد الديواني الى بغداد محطم القوى متيسس البلعوم . قطّـع على قدميه ما يقارب ثلاثة كيلو مترات في أرض فقراء تنبح بها الكلاب وأختصم مع سائق سيارة صب عليه شتائمـه لانه رفض ان ينقله مجاناً . ولم ينم ليلته تلك ، فقد خاصم الوسن مقلتيه خصاماً لا هواذة فيه . وتأمرت عليه كائنات صغيرة حقيرة نهشته من كل مكان في جسده واستشعر لأول مرة وعورة فراشه وتخشب وسادته وراثته قميصه ، وبرزت من الجدران من حيث لا يدري ولا يتوقع أشياء كثيرة عفنة كالحة ممقوته عملت على إثارة أعضابه ومضاعفة ضيقه حتى ان مراتبه كلها على ثقلها وبلاغتها عجزت عن الرثاء لحاله . الرثاء للرجل البائس المنطرح من غير قوت المعاني الآلام صحوه بأشد ما يعاني الجريح لآلام جراحه .



عودة الى الفجور

في ليال كثيرة ، وحتى قد تكون متعاقبة ينتاب جليل القلق ويحوطه سأم بارد كثيف منهك ، ثمة نوع من الأفكار السود المزعجة تحوم حول تلايف ذهنه مثل القتران الخبيثة الصغيرة تريد نهش طعام هش .
في كل لحظة يهيمهم بصوت خافت ويلطف بلعومه ويرسل نظراته الفاحصة المستريية الى وجه زوجته الصغير البرونزي الذي يثير في ذهنه بصورة قاسية وجهاً بانسا لبغي في مكان مخجل .

ما هذا الذي أفكر فيه ؟ أية حماقة تراود ذهني ؟
يحاول في جهد مستميت ان (يگشط) هذه الأفكار عن رأسه ، يحاول ان يدفعها ويصدها بكلتا يديه كما لو انها خفافيش تريد أن تاطم وجهه .
كانوا يهينونك هناك اليس كذلك ؟

يسألها في ملاطمة تخفي وراءها نوعاً ملحاً من الشك فتشيع بوجهها وتستهرد وتعيد على مسمعه عبارة واحدة طالما ترددت على شفتيها : أية حياة : كانت أموراً مخجلة حتى ليستحي المرء ان يفكر فيها ويستحضرها في ذهنه - انا أفهم - يبدأ خليل حديثه كرجل حكيم مجرب - طالما دخلت بيوتاً مثلها أيام عزوبي وأن لم أكن ، ولعاً بالنساء الا ان ثمة مناسبات تفرض علي هذا النوع من المتاع . كنا نفد على البيت المريب ثلاثة او اربعة من الاصدقاء قد تعتنا السكر وذهب برشدنا تأرجح على الباب متسائلين في اهتمام : هل هنا امرأة جميلة مسلية . نجد دائماً من يدلنا على بضاعة مرغوبة . كان البعض منا سفيها لا يطاق فهو لا يني يردد في تلذذ كلمات بديشة

وكأنها ضرورة لازمة لهذا المكان ولم نجد نحن غضاضة من سماعها . تلقى النسوة قاعدات على الارائك تعلو اكتافهن وجوه عديمة الحياء مصبغة بالمساحيق تطل منها اعين متورمة منهوكة بالسهر .. تقو .. بالافاجرات .

«لماذا تريد ايلامي ايها العزيز» بترشح من اسنانها صوت ناعم يدندن بنغمة حزينة - كانت اياماً مرعبة حقاً كايام الانسان التي يمضيها في زنزانه - واسترسل جليل بلهجته الحكيمة المجربة - يا للهلم الذي اورثني اياه كآبتك الصامتة - كانت عيناك تلوحان لي كأنيهما ترشحان دموعاً غير منظورة ، كنت اجدك كطائر صغير متعب ضعيف سقط بين زمرة من الغربان السفهاء :

تبسم سميرة وتؤرجح رأسها ثم تعود فتثرثر في سذاجة - كنت الحظ اهتمامك بي ولكنني لم اتبين ما الذي سيعقبه ، كانت مداعباتك سليمة واسلوبك رفيعاً ؛ كنت احس اني مسوقة اليك بقوة كبيرة - واخيراً ينتهي هذا الحديث الذي اثاره جليل ورغبة منها في تبديد شكوكه المرهقة تضاعف ملاطفاتها وتمنحه المزيد من عنايتها وتمسح على شعره حتى سأمها ويبعدها عن نفسه ، وسرعان ما يطوق الكرى جفניה . يداهما النعاس وكأنها قد استشقت كمية من مخدر قوي فتضع احد كفيها تحت خدها المضغوط بوسادة الريش فيبدو ذلك الكف كأنه قد انزل لطفة موجهة على خدها ، وساقاهما مطويتان على شكل خط منكسر ، تبدو في الفراش امرأة ضئيلة حتى ان لحم كنفها يبدو مهلهلاً بعض الشيء ، وعندما تستغرق في النوم وتغطس في اعماقه السحيقة تزفر وتتنهد وتنفض رأسها كأنها تشهد احداثاً رهيبية مفزعة تدود ان تمحوها على عجل كما تمحي الكتابة الطباشيرية .

يتساءل جليل في ذات نفسه ترى هل هي سعيدة معي ؟ ألم يخطر لها ان تعود الى ذلك البيت المرعب ؟ كان حريصاً على سلوكها وقد ادى به هذا الحرص الى مضايقتها وتعذيبها . يستقصي اخبارها ويتعرف على صديقاتها ويسألها في الحاح

ضجر عن ذهابها واوبتها ، وان لم تكن هذه التحقيقات تأخذ ايا من أشكال الزجر والتأنيب الا ان القصد منها ان لم يكن خفياً على ادراكها . كانت تشعر انها ادنى حرية من زوجات الآخرين ، وانها ذات ماض ملوث وان في زوجها وسواساً يعذبه وبرهقه ، ان جليل لعل قدر بغض من الحساسية

ذات يوم قأظ من شهر ايلول وقبل نحو اربع سنوات فرت سمييرة من بيت خالتها ، كان هذا البيت قائماً في بقعة جميلة من بغداد تتجاوب في جنباته ابواق السيارات المنطلقة من شوارع كثيرة تحيط به ، وهو بيت اوربي الطراز يحتل وسطه صالون انيق مؤثث بالارائك والمشاجب وانواع المرايا المصقولة ويحط على احدى مناضده تلوون عاجي اللون . وقد اتخذ هذا البيت شكل قلعة حصينة مسيجة بجدار عال وفوق هذا الجدار اسلاك شائكة في علو متر ، والباب الخارجي مشبك بالحديد لا يفتح ولا يغلق الا بأمر خالتها سيدة البيت . .

كانت هذه الحالة مأكرة ضئيلة يركب وجهها انف متأكل وتطل منه عينان صغيرتان زجاجيتان خلتا من كل رونق تحدج بهما الناس والاشياء بطريقة منكرة مقززة ، فهي بمجياها المستكره المقيت وذوائب شعرها المصبغة وعينيها الباردتين الشاحبتين لتضرب أسوأ المثل لفاجرة عجوز مهتوكة ائمة .

في ذلك البيت ست من المواهر . في أشهر الصيف اللافحة يتجردن من ملابسهن خلاقميص شفاف حريري يتهدل على أكتافهن في أسترخاء ، يتراقصن ويتزهزن ويرددن أغنيات مبتذلة تنبثق مثل نافورة عامرة ثم تخبو ويبدأ رويداً وتلاشى الى الابد .

في ذلك البيت الذي يشبه حصناً من الحصون يعشن اولئك النسوة حياة الفجور المنهكة . لانقف عند تجفيف الدم من الوجنتين بل انها تسلب طراوة البشرة وتترع الادمية نفسها . عاشت سمييرة بضعة أشهر . كان الرجال الفخورون

ذوو البشرات الصقيلة المحفوقة يتخطفون امامها مثل الديكة المهتاجة الكاسرة ،
يتفرسون في وجوه البغايا بعيون نهمة وقحة كسرب من تجار المواشي يتفحصون
الاغنام في السوق العامة . وفي مناسبات لاتحصى كانوا يسمعون لانفسهم دونما حياء
بدغدغتن ، وكن يتقبلن كل مضايقة بنفس رضية صابرة تقتضيها واجبات المهنة
وأصولها

وعندما هربت سميرة كانت قد احتملت هذه المضايقات زمناً قصيراً فقد
أصطادتها الحالة وأغوتها ووعدتا انها ستزوجها لابنها واتضح في الاسبوع الاول
أن هذا الابن قد احترف مهنة أمه وغدا ساعدها الايمن فضاعت الآمال واستكانت
سميرة للقدر . تجد نفسها في كل مرة مبطوشاً بها ومكرهة بارغام ان تستجيب لطاعة
العبيد المسخرين برهة السوط ، تخطو الى غرفتها الصغيرة النظيفة ومن ورائها رجل
لاتعرفه يهز عطفيه ويتسم في انتصار يلحقها الى مخدعها .

جرى بعد هروبها مع جليل تحقيق سطحي واثارة نوع من الحديث وتساءل
عنها بعض الرواد الاثيرة لديهم فزعمت الحالة انها ذهبت تستجم بضعة أشهر
وستعود من غير بدفاعتاد الرواد غيابها كما يعتاد الناس غياب اعز الاحبة وأقرب
الاصدقاء وهكذا نسيت سميرة وخلت منها الذاكرة .

تعرف عليها جليل في ذلك البيت ، كانت خالتها قد استدعته لطلاع اثاث
الغرف ، فكان في كل صباح يلج البيت بيدلة عمالية مدهنة بالاصباغ ومعه زجاجات
وقطن وخرق بالية وفي يومه الرابع فاجأ سميرة في مخدعها . لقيها وحيدة مهمومة
متورمة الجفون . مؤرقة قد غطست في فراشها مثل كيس صغير افرغ منه نصف
محتوياته ، قهدلت جوانبه وانتت ، تطلعت اليه بعينا المسهدين . كان شابا فارح
القامة رشيقاً أدنى مظهره الى الرثانة يتحرك امامها بخرق عمالية رثة ، دار الحديث
بينهما عادياً من النوع الذي يتبادل الغباء لاول مرة ، وفي اليوم الثاني امعنت

النظر الى عينيه الصافيتين البريئتين وشعره الاسود المنحدر في تسريحة جميلة عند أذنيه ومؤخر رأسه . فأنصت الى كلماته في شغف وبهجة ، انه يلوح لها أنساناً لما تلوث روحه بعد فحرضت عليه ان يتزوجها ويفر بها فاستجاب من غير ادنى تردد . كانت تلوح له ذلك النهار امرأة مستعبدة مهانة قد خنقت كافة أحاسيسها الانسانية ، لها طلعة كئيبة مظلمة . كانت في عشية الليلة الفائتة قد نالت ضرباً مبرحاً من احد الناس ، لطمها على وجهها وخدش جسمها ٠٠

أستهل سمية حياتها الزوجية بسعادة غامرة ، فرغم ضيق اليد وقلة الاستعداد وانعدام أسباب الراحة فقد عملت منتشية فرحة على توطيد دعائم أسرة جديدة ، فابتاعت طباخاً ذا فيلتين وقدرين للطبخ وآنية لغسل الملابس ، وابتعت بالصحن والملاعق ولم يعد يمنعها ان تضع فلساً فوق الفلس لتشتري بما يتجمع لديها كوباً للشاي او ابريقاً أو قدحاً . كان هوس الاسرة يدور في دماغها كالحصى . احياناً يقسو عليها جليل فيتبادل الزوجان عبارات جافية تسقط مثل البقع الذهبية على قماش من المخمل الثمين فتأتيها بعد يوم لو بعد ساعة او بقات مفعمة بسرور عميق جارف ، فتتشبع البقع الملوثة وبصفو المخمل ويغدو من جديد متألقاً جذاباً .

كانت في أيامها الاولى تتوجس خيفة من اصدقاء زوجها . أن بعضهم قد يتعرف عليها وربما يثير بعض الفضائح ويخلق الاشاعات ولعل بعضهم كان رائداً ملحاحاً لبيت خالتها فعرفها هناك . ولكن الايام الهائلة جرجرت اذبالا كيفية على ذلك الماضي ، فراح بترأخي الايام يتحلل الى مادة هلامية مائعة لايمكن ان يتعرف على شكلها انسان .

وبعد أربعة اعوام هربت سمية مرة أخرى ، خلفت وراءها سريرها وأدوات طبخها ٠ جمعت أشياءها ذات صباح وعادت الى ذلك البيت المرعب ،

في عشية الليلة الفائتة وقعت مشادة بينهما كان شيطاناً أحرق ركب رأسها فهرجت في غير ماضورة بلغو محتلق من نسج خيالها وبكت وأعولت بنشيج حزين كانت تردد في غمرة عبراتها انه يستحق بها ويخجل من صحبتها ، وانها بائسة لاجدوى من حياتها مع انسان لا يقدرها ، فكما زارت أحداً من اقربائه تلقاها في برود وتغافل عن ضيافتها . تلکم السيدات بنات خالته وزوجات أخوته اذا ما ظهرت في مجلسهن تها من عليها وتجنبنها في أصرار حتى عبارات المجاملة والترحيب تتساقط من أفواههن مكذوبة مصطنعة ، لم يكن جليل على قدر طيب من سعة الصدر كان هو الآخر مأزوماً ضجراً فالعمل المرهق الطويل قد أمتص طاقته كلها وفي المساء يدوي تعباً وكللاً ويتنظر في أستسلام قبض أجوره وفي المنزل تستقبله بمطاليها . كانت هذه المطالبات تتضخم في مسمعيه فبعد ان كانت دندنة خافتة يشعرها جليل اليوم وكأنها زمجرة دائن اطليل تسويفه ونفذ صبره ، قد استقلت النهار بطوله فوق الكنبه مريحة بدتها العليل . فطلب اليه ان يصحبها الى السينما فتقوم الى مشجب ملابسها لتسها وتزين وقد بلغ منه التعب حد الانهك قد ترشح العرق اللزج من قدميه المضغوطين بالحذاء . يبدو انها تناست ان زوجها عامل متعب مرهق ، ولا تجد غضاضة من جره الى السينما بخرقه البالية .

يقول في ذات نفسه انها لا تقدر ظروفى ولا تدرك اى عمل شاق أمارس في ساعات النهار . كانت مهمة افهامها عسيرة ، حاول ذلك مراراً في ايام البطالة واصطنع معها ابسط الكلمات لكي تفهم وتعى وفي اليوم التالي تنسى همومه وشكاواه .

كان هروبها أمراً باعثاً للاستغراب ، في الصباح تبادل قليلاً من عبارات الجفاء وعبس في وجهها وجلس الى فطوره صامتاً مطرقاً توشحه سحابة قاسية من من الضيق والتبرم . كان في غمرة ضجره وسأمه فأنشأت تتحدث بكلام بارد ثقيل ضاعف من توتر اعصابه .. انك مللتني يا جليل لم تعد لي مكانة في بيتك تجد دائماً

من المعاذير لكي تبقيني سجيناً وحيدة واسفاه قد أوشكنا على النهاية .. زوجة وأية زوجة مجرد مأكنة لغسل الملابس وطبخ الطعام . زوجات اخوتك مازال يتجاهلني ويحتقرني لا أدري كيف تكون التوبة ممكنة امام الساقطات .

ممكنة ممكنة - هكذا اجابها وهو يحتدم غيظاً واحتياجاً وقد اتسعت عيناه واستدارتا صارمتين قاسيتين وتابع يقول « انكن معشر فاسد موحل تعجزمية البحار كلها عن غسلن » استدرك بجرس نادم حزين - كلا هذا ايضاً غير صحيح والحق انكن ضحايا مغرورات مخدوعات ، بينا انا عامل بسيط معرض البطالة وقلة الرزق والعوز والعاهات وسواها ، فرغم انني اصنع اشياء جميلة قوية يتباهى بها الناس فهم لا يعرفوني ويابون ان يجلسوا الى جوارى في السيارة خشية ان تلوث اسمالي الوسخة ملابسهم الثمينة وانك انت شيء زهيد مرذول مخلوقة تائهة ضيقة الفكر عديمة الشعور واقعسة في خلب الحياة البراقة . همك الفساتين وأرتيادالسينمات وهذا مالا طاقة لي به ، فكري ملياً واتخذني لنفسك أي سبيل مناسب .

فقال سمير وكأنها تذاجي نفسها او تداعب لعبتها وتعاتبها - سبيل مناسب كنت اقول انني قد وجدت السبيل المناسب في حياتي معك . تلك كانت امنيتي وأحلامي اواه .. اواه لم افكر كفاية ذلك كان كل السبب - شكهم غضبه وأجاب في غير مبالاة - افعل ما يحلو لك لا اقف في سبيلك ، ان كان ثمة سعادة ترجينها في غير هذا المكان فليس في نيتي ان أحرمك اياها .

« انت تريد هذا انا أفهم » أجابت في يأس وأسف

أمتعض لكلماتها الثقيلة الشائكة ، كانت تخترق جميعته وترسو هناك مثل قطع صغيرة مديّة من الرصاص ، عندما وقع قدميه خارج المنزل لم يتغير شيء من

حياه الحزين العابس قال يحدث نفسه ، ان شاءت ان تذهب فلتذهب ولكن الى اين ، لذلك البيت المرعب ، هذا مستحيل ويجب ان يكون مستحيل ..

في ساعات عمله الطويلة تراوده خواطر شتى ، كان يتمهل بين الدقائق المتسارعة ويطلق مفكراً كمن غمرته موجة من الذهول .

انها لن تفعل كان الامر مجرد عتاب ليس غير - امام ناظره تنهذى العربات المتصدعة المعطوبة مشدودة بها خيول ظالمة هزيلة تطلق بعجلاتها على الاسفلت المهشم المحفور ، يرفع اليها باصريته ويرمق الجالسين متفحصاً وجوههم يتسامل في دهشة - لم انا افعل كل هذا ، انها لن تعود ابنت خالتها لن تعود لن تعود .. قشة شعور لطيف محب يستيقظ في أعماق كينونته ، نوع من الزمالة ربطته بذلك المخلوق الساذج البريء المغرور الذي يشغل باله في هذه اللحظات .

في تلك الليلة قام بجولة قصيرة في انحاء المدينة وعاد الى منزله في نحو الساعة التاسعة . كان السكون يخيم على الدرب الضيق والجدران الشاهقة المعوجة تنهض امام عينيه كاسوار قلعة رهيبة وقد غمر الظلام كل شيء . تطلع الى نافذة غرفته . كان سكونها اعلم من سكون الطريق ولم تكن فيها سميرة بل لم تكن تلك الغرفة الدافئة الاثيرة لديه بل خربة باردة موحشة . لقد هربت ، ان مجرد تصور بيت خالتها يثير في نفسه احساساً لا يقاوم من الاسى .. اواه باللعار والشناعة .

وفي اليوم التالي وحالما انتصف النهار قصد جليل البيت المرعب الذي انتشل منه قبل أربع سنوات مخلوقة ساقطة كئيبة . وجد سميرة بين جوفه من صوحيحاتها يغمرهن مرح كاذب تتطلع حولها بعينين باهتين ذاهلتين تتمم « ان تكون عاهرة فقير ناجحة » ، برزت خالتها وصاحت مغضبة « انظروا هاهو قد جاء هذا الذي ظلمك واغتصبك واذا فاك الهوان هذا الذي تأمر عليك واراد ان يتبرك . تأمل وجهه جاء

مستخذه متوسلاً يريد لنفسه امرأة ليسجنها ويعذبها ويحرم عليها المسرات .
ودهش خليل اذ خرج له من اقصى البيت رجال أشداء يعملون في البيت
أقبلوا عليه مهديين كما لو انهم انفقوا على سحقه وتهشيمه ، فأنسل هارباً وقلبه
مفعم بالاسى ، وفي المساء الاغيش التقى خليل عرضاً بأحدهم . كان لقيه في ظهيرة
ذلك اليوم في منزل خالتها ، وكان رجلاً احذب مرتجف الذقن يترصده الرجال في
ناصية الشارع برأس مطرقة ، وعينين محاذرتين قد حشا كلتا يديه في جيب سرواله .
وانحنى جسده الطويل الى الامام . انتهز خليل فرصة تحدثه مع ثلاثة من
الشبان المهندمين ، ودنا نحوهم وأنصت الى حديثهم . كان هو الذي
يتحدث قال « انها سميرة الا تعرفونها هربت منا قبل أربع سنوات . وعادت أمس ..
جميلة رائعة ..

هتف أحدهم : «عظيم جداً هذا ما نبحت عنه هيا دلنا اليها » فمشى وتبعه
الثلاثة الآخرون وتسمر خليل في مكانه يتأثرهم بعينه الدامعتين صاح في يأس ..
« سميرة سميرة وشق طريقة في الظلام » ..



في الحانة

كان السيد فهمي يحسني خمرته في حانته المفضلة الصغيرة الغاصة بعدد متباين من الناس والتي يديرها منصور الشاب الاسمر ذو العينين الجاحظتين . كانت قد مضت عليه ثلاث أعوام منذ ان سرح من خدمة الدولة وزود بدفتر تقاعد صغير أحمر أعتاد أن يدسه في جيب سترته الداخلي ويتفحصه عدة مرات في اليوم الواحد .

لقد غدا يهرم ، ليس فقط بالتناقص في عدد اسنانه ، بل أن خديه صارا أعرق غورا مما كانا من قبل وتدبب حنكه واستطال واشتغل رأسه بشيب فضى كما أن مشيته غدت مرتجة رخوة .

انه يقيم في هذه الايام في بيت امرأة عجوز يقع في نهاية زقاق طويل معتم حيث يحتل غرفة في الطابق العلوي صقيلة الارض نظيفة مرتبة ذات نوافذ تفتح الى الاعلى مزججة عند السقف بضروب الزجاج الملون الصغير الذي كان يزين به البيوت ايام ولاية ناظم باشا . ان مثل هذه البيوت كان تحفة في زخرفتها ، يسكنها وجهاء بغداد وتجارها وقد غدت اليوم مهجورة عتيقة يؤجرها المعوزون ويقبضون في ارجائها في تزامم واحتشاد . كان فهمي يقيم قبل هذا البيت في بيت آخر مثله اتت على رأسه مقصلة الهدم فقوضته من اساسه وانشيء مكانه شارع عريض فسيح بعد ان احتمل ازير الرافعات المتواصل في الليل والنهار طيلة عدة أشهر . لكم كانت تلك الماكة الهادرة ترعج اذنيه . لقد تقوض البيت وجمع حجارته الصالحة رجل حاف ونقله فوق دابة الى مكان بعيد ليبنى بها مأواه الصغير .

ليست معه زوجة الآن ولم يشأ أن يتحدث عن زوجته ولا يطيق سماع أخبارها ، ان ذلك سيكون قميناً بجرح عواطف الرجل المتقاعد الذي يحسني خمرته في طمأنينة ودعة . ليس من الخير ان يذكره انسان بفتحية لقد مضت الى غير رجعة . مضت مع رجل مصطحة معها طفلة و داد . نعم الزوجة والطفلة كلتاهما هجرتاه في يوم واحد وأبقيتاه وحيداً متعباً قليل الحول . كانت امامه كأس قد ذهب معظم خمرها و خلت الصحون من الكثير الذي كانت تزهو به من طعام ومزة وانه يصيخ السمع في الدقائق الاخيرة من سهرته الى صوت يتغنى به صاحبه :

هجرتك حتى قيل لا يعرف القلي وزرتك حتى قيل ليس له صبر .
كان الصوت يرد اليه من زاوية أخرى من الحانة من حشد حاشد من الشباب العايب الطافح ضجيجاً وعريضة .. كان بعضهم يؤرجح رأسه ويصفق ان أكبر الجالسين سنأ لم يبلغ بعد نصف عمر فهمي .
كان يود ان يتخفف من همومه ، كأن ينسى فتحية وابنته و داد و ايام سعادته الزوجية وينسى راتبه الضئيل الذي تقلص الى ما دون الثلث ، وهذا الدقتر الاحمر المدسوس في جيب سترته . انه اشبه بالقرص الذي يعلقة الجندي الى صدره فأن تجندل على الارض كان القرص بمثابة المرشد الى اسمه ورقمه وهويته . شيء غير مستحب يذكر بالموت وقرب الاجل . كان يتنهد بعض الاحيان ويتلفت باحتراس ويدرس امائر الشاربين كأنه يود ان يعثر على صاحب ملائم يباسطه الحديث . وليس في هذا ماي سوء احد فالصداقات في الحانة الرخيصة تنشأ من غير تعقيد ولا مقدمات فقد يتصل الحديث ويدور النقاش وتتساجن الحكايات وتروي الانباء وتفتضح الاسرار بين شارب في الشمال وشارب في الجنوب في طيعة تامة ، ولكن السيد فهمي لم يلق ضالته . كان الشاربون جميعاً متلاحمين فيما بينهم ، يتحدثون في حمية وحرارة .

برزت على ارض الحانة الطفلة سناء وهي شحاذة بائسة في العاشرة من عمرها يضئ شمعية اللون كأنها تشكو داءاً . تلف رأسها بطرحة صوفية حمراء تبرز من جوانبها خصلات من شعرها الذهبي الذي تعوزه النظافة كانت بلا نعلين وثوبها مهلهل حتى ان الاصبع الواحد لينفذ من بعض ثقبه . تداني فهمي نحو حافة المائدة حتى اتكأ بها مرفقيه ثم انشأ يصفق يدين نحيلتين تلطم احدهما الاخرى لطمات غير موفقة وصماء احياناً حتى فطنت اليه الطفلة وتبسمت بسرور هتف فهمي . . سناء اقتربي الي - فامتثلت له الطفلة مطيعة مستسلمة فبادرها يسوءا لين متتالين - الست انا عمك ؟ الاتحييني ؟ واجاب بنفسه على السؤال الاخير - نعم تحييني ، هذا واضح وطلب اليها ان تريه كسبها في هذا اليوم فتحت الصية راحتها كاشفة عن نحو سبعين فلساً كلها قطع حمراء نحاسية ومسبحة بالعرق تهد فهمي وتفرس بامعان الى وجهها الصغير المتغضن الحالم فيما كانت دمعتان كبيرتان تهدران على حفاقي عينيه قالت الصية وكأنها تؤنبه - عدت تبكي مرة اخرى ان الناس يغنون من حولك ويضحكون - غمغم فهمي - سناء عندي ابتغني مثل عمرك اسمها وداد فسألته سناء على الفور . اين هي ؟ اهي مثلي تستجدي في الحانة ؟ اجاب فهمي في انكار :

- كلا ليست مثلك . ولكن يا الهي لم انا اكذب ! ما ادراني ما حالها ؟ انها ليست معي في هذه الايام ، قد ذهبت مع امها في يوم واحد .
عس يحيا الشحاذة وردت مستكرة . .

- انها لييمه بنتك هذه ؛ تهجرا باها كيف ! . وتابعت متحسرة لكم اتمنى ان يكون لي والد ! . فاستطرد فهمي يقول بجرس خافت كأنه الهمس - كانت جميله مثلك يضئ متوردة الوجنتين لها مثل هذا الشعر الذهبي - سألت الشحاذة .. هل هي حافية القدمين وثوبها ذو خرق ؟ .

اجاب فهمي في لامبالاة وقد انفغر فمه على نحو فاجع :

- لست ادري اني اسكر كل ليلة كيما اتذكرها ...

ولكن ما الفائدة من الذكرى انها تجعل الهم مضاعفاً . وانت ياسناء هل تحسين ان امرأ ما يؤلمك اقصد هل عندك احزاناً كثيرة ؟.

اجابت الصبية في ثقة - حزنت كثيراً فيما مضى اما اليوم فأنا منشرحة القلب فقد اعتدت الشحاذة وامل ان يكون لي مبلغ جيد بعد حين فافتتح به عملا حسنا مع والدتي وان شئت اشترك معنا ، نعتزم ان نفتح حانوتاً .
لم يبال فهمي قط بكلماتها انما استرسل يقول وكأنه يحدث نفسه ..

- على مقربة من هذه الحانة تقوم مدرسة للبنات الصغيرات مدرسة كبيرة محاطة بالورود والرياحين ، تقبل اليها كل صباح فتيات في مثل عمرك وعمر وداد جميلات لطيفات محتديات نعالا انيقة وملفات بالفرو والاصواف ، اواد ما انا فاعلة .. اصنع هموماً اخرى لهذه البائسة . اشوش افكارها افسد احلامها . سوف يكون لك ياسناء حانوتا فخما اشبه بالمغازة العامرة فيه اللعب والاقمشة والاحذية ، ولسوف تجلسين وراء المكتب وتطوين الدنانير وتضعينها بالجرارة .. ولسوف تكونين اغني اغنياء الارض فيهتف الناس ما اعظم سناء ا.

اجابت سناء في حلم - نعم سوف لا يذكر احد ان سناء كانت ذات يوم شحاذة ولا اريدك ان تقول لاحد ابدًا فتجعلني اخجل . عدني ان لاتقول لاحد .
فاكد لها فهمي في عزم - لن اقول مطلقا .

وعاد يواصل حكايته ... كنت اتمنى ان تكون وداد مع هاتيك الفتيات وانت ايضا ياسناء اني اتطلع اليهن احيانا بل في كل صباح ومساء لقد غدت هذه هوايتي الوحيدة منذ ان اقمعدوني . واذا ما انهي حديثه الطويل الشجي احنى راسه واطبق عينه فبدا كأنسان قد نام فتسللت سناء ومضت تلمس الصدقة من الحشد الحاشد

الذي كان ضحيجه يصم الاذان فاستفاق فهمي بغتة على صرخة حادة اطلقتها سناء . فتح عينيه وشخص يبصره الى سناء وجدها محتجزة بين جسدين بدنين مخمورين يحاصرها اربع ايدي شقية عابثة راحت تعتصر بطنها وصدرها وان احدهم قد رفع بوزة محاولا ان يلثم شفيتها فيما اطلق الآخر ضحكا داعرا مقبئا كانت هي تهمهم في هلع وتحاول الفكاك فتسف بجسدها الى ادنى وتتفض صاعدة . وما اسرع ما رفع فهمي عينيه الفارغتين المجردتين من ايما بريق فوجه سناء الجبية قد وقعت في قبضة الوحوش فهض في الحال ملقيا كرسيه الى الوراء صائحا في غيظ واستنكار - ما الذي تفعلونه بالطفلة ايها السفهاء - واندفع نحوهم في غير تحكم ولا اتران قمين في اي لحظة ان يعثر ويتهاوا الى الارض وقبل ان يبلغ سناء لكزه احدهم بكوعه في الصدر فترنح قليلا وانطرح على قفاه فرفع الآخر كأسه ورشه على وجه فهمي فتفد بعض الخمر الى فمه المفتوح وبلبل شاريه حتى ان عينيه دمعتا وارسل عطسة ضخمة ثم شرع يحرك ساقيه حركات خرقاء ليستعيد بهما وضعه المنتصب فاختل نظام الحانة . وقهقه بعض الشاربين بينما احتقن الدم في عين الآخرين وبدت بوادر العراك تذر قرنها فمضى منصور الى الباب الخارجي ونادى شرطيين حازمين فتقدما عبر الحانة وانتهيا الى فهمي ورفعاه عن الارض واستقاه امامهما مضطرب الهندام مبلل الوجه بالعرق . فخرجت سناء من وراءه معولة صارخة - عمي فهمي عمي فهمي - وقد رفعت كفها الى السماء فيما كانت اصابعها القوية الصغيرة تضغط على كسبها الذي نالته في ذلك اليوم .

الاب والابن



كانت المرأة المردولة تضطجع على سرير حديدي يعلوه فراش رقيق تعوزه النظافة حيث تقوم عند رأسه وسادتان مجعدتان مبوجتان .

كانت عفيفة تحيا في وجرها المعتم المقبض لاشد النفوس مرحا وصفاء والمزين على نحو لايمت للذوق بآية صلة بصور ورقية متزعة من مجلات تمثل نساء لايشبهنها مطلقاً . يتخطرون بالمايوهات على سواحل البحر . ان بينها وبينهن مدى شاسع قد لاينقص عن مدى البحر الذي يستحمن به .

تملك المرأة في غرفتها منصدة ذات جرارات قد وضعت فوقها اشياء زيتها . فشمه مكحلة لتسويد الجفون وعلبة دهسان وبودرة رخيصة وعلاجات عطارية من شتى الاشكال .

كان النهار قد تقدم وهو نهار شتوي قارص البرد جررت عليه الشمس الواهنة خيوطاً صفراء ذابلة . تلمست المرأة خشية فراشها فلم تقع على الجسد الاخر الذي كان مضطجعا الى جوارها طوال الليل . انه قد انصرف كما يجدر بكل زبون محترم ان ينصرف قبل ان تطلع عليه الشمس

في الرقاق الذي تطل عليه نوافذ غرفتها هرج كثير ، فهناك الرجال انفسهم يدبون ديب الحشرات من ابتلاج الفجر حتى منتصف الليل . انهم يتدافعون ويهدرون منقبين في ارجاء المزرقة عن عظمة تكسوها بقية من لحم ولكن معظمهم

في مثل ذبولها وشحوبها ان الجديدات سرعان مايغدون عتيقات ، فالاحمر يستحيل الى اصفر والمشح الى مظلم والطازج الى عفن ، والحى الى متهري والطبيعي الى المصنوع ، وهكذا يدور بهن الدولاب . لقد انصرف الرجل وقد تذكرت متى انصرف ، كما تذكرت الاجر الذى دفعه لها . كان فتى وسيماً حسن الهندام من اولئك الشباب الذين يدرسون في الكليات . فاصابعه نظيفة بيضاء ووجهه املس رقيق وعينه سوداوان تختين وراء اجفانهما في وداعة وطيبة فائقتين وصوته عذب صاف لما يחדشه الدخان بعد ، لا يأمل احد من الناس ان يجده في هذا المكان الموبوء . لقد تحدث اليها في الليلة الفاتية احاديث كثيرة مفعمة بالود والاحترام كالحديث الذي يتبادلها الازواج مع زوجاتهم في انا ساعات الحياة ولكم تعدد أن يطول مكوثه عندها . ياتيها كل مساء وينصرف كل فجر فيوفر عليها مشاهد مقرزة ملأت جوانبها غيظا واذى . ولكنه يخشى أبويه . فثمة شيوخ قد تساقطت اسنانهم وخسفت اصداغهم وتقرعت خدودهم يتحدثون باصوات موصوصه كاصوات الفئران ، يزورونها كل مساء فيعتصرون جسدها كما تعتصر الثياب .

منذ عهد بعيد كانت تعيش عفيفة في اسرة محترمة فاصابتها ضربة من القدر انزلت والدها الى القبر ثم تبعته والدتها الى ذات المصير فزوجوها اخوتها الى رجل عجوز بالغ من الدمامة في سبيل مهر معجل سطا عليه هؤلاء الاخوة ثم مات الزوج فبذها الاخوة فتلقفتها الشوارع الرحبة والعيون الشرسة واتهى بها المطاف الى عشرة رجل ثرى جميل اغدق عليها كثيراً من نعمته فزوجوه أهله الى امرأة من قريباته لئلا تتسرب ثروة العائلة الى الاغراب .

القت الغطاء جانباً واتصبت وسط الغرفة تعية مكدودة مثقلة بالنعاس . لم يكن عليها غير غلاتها ولم يكن وراء هذه الغلالة غير عظام معروقة وجلد ذابل .

تلك هي المرأة التي يتكالب عليها الرجال في الامسيات والليل ، سرعان ما عالجت وجهها بالمساحيق فبدا اكثر امعانا في البؤس وادعى الى اثاره الشجن ، ان مساحيق الامس تبددت فوق الوسادة وعلى وجتي الفتى الوسيم الذي كان جوارها طوال الليل .

انها تعلم كما تعلم كل امرأة في هذا المكان ان حياتها قد تنتهي بالم موجع مستعص يقلع روحها في اناة ، او ، قد يداهما رجل يحمل خنجرا فيقرر بطنها ويمزقها .

استعادة عفيفة ذكرى ذلك الرجل الذي لاقته في مفتتح حياتها واستعادت ذكرى فتى الامس ، الاثنان يكادان يكونان متشابهين كلاهما يحمل ذات العيون الوديدة المؤانسة وكلاهما وسيم ناصع البياض ولكن يفصل بينهما نحو عشرين من الاعوام هي عمر فتى الامس ، وصاحت - ربة الدار - احضري الى الفطور يا عفيفة - كان صوتها ساخراً ذا معنى ثم اردفت بكلام آخر جعل زميلاتها الاخريات ينفجرن ضاحكات فآلمها ان تكون مدعاة لسخرية الساخرات وعبث العابثات ولكن هكذا تنتهي كل ساقطة تجوز مراحل الشباب ويذهب عنها روادها انها اقدمهن في المنزل واكبرهن سنا ومع ذلك اطاعت ربة الدار واسرعت الى السلم ملبية النداء ودلفت الى غرفة كبيرة فلقيت زميلاتها متحلقات حول النار يتناولن فطورهن بثثرة ويتباهين بمغامرتن في الليلة الفائتة .

ابتمت ربة المنزل وقهقهن الزميلات لقد مضى شهران منذ ان باتت عفيفة الى جانب رجل . كان فلاحا أعبر أقبل من القرية عند منتصف الليل وكن الزميلات قد اصبن زبائن مرموقين فكانت هي من نصيب الفلاح .

حقا انها لم تتم الى جانب زيون منذ شهرين ولكن رجل الامس بزن
المئات من رجال زميلاتها . وانتظرت ان يعود في الليلة التالية والليلة التي بعدها
ولكنه لن يعود ولن يعود ، فتجمعن حولها الزميلات يسألنها عن خبر ذلك الفتى
الوسيم فتاوهت متأسفة - اواه لكم يشبه الرجل الذي لقيته في مفتتح حياتي انهما
اشبه بالاب والابن . . نعم الاب والابن الاب في مفتتح حياتها والابن في آخر
هذه الحياة .

مؤامرة



السيد عبد الحميد او ابو نبيل ، كما يحلو لاصدقائه مناداته بهذا الاسم ، شخصية لطيفة محببة . رجل سمين عظيم البطن متفخ الخدين كأنه ينفخ دوما في بوق ، يكسو رأسه شعر اشيب حصيري قليل يضيفي على الرأس كله سيما وقورة . يضايقه حر الصيف ابلغ مضايقة حتى ليجعل من ملابسه اسفنجة كبيرة ما تبرح تمتص العرق من تحت أبطيه وصدره وساقيه .

تزوج قبل عشرة اعوام من سيدة وقورة محترمه مقتره ، استطاعة بضروب افانيتها في الاقتصاد ان تبني للعائلة بيتاً وتكدس في ذلك البيت اثاثاً عتيقاً نظيفاً لانكاد ترسو عليه ذرة غبار حتى تعاجلها بالنفض والمسح وله في مخدع نومه صورة تمثله في ايام عزه وشبابه . شعره الاسود الجميل وبقسامته المتناسبة وبصدره العريض . وقد انجبت له زوجته ولداً واحداً لا سواه ولا غيره كان هو قرة العين وشهادة تنفي العقم .

كانت الدراسة الجامعية تستهويه اشد الاستهواء ، ففي مطلع شبابه نال شهادة الثانوية فسعى الى وظيفة فتوظف ، ولكن زملاءه واصحابه مضوا قدماً ، فتخرجوا اطباء في عيادات فخمة ومحامين في مكاتب رابحة وله اصحاب ذوو رتب عالية في الجيش ، بينما انكمش هو في وظيفة صغيرة متواضعة لاتناسب هيكله الوقور وثقافته المتحررة .

وفي ابان سياسة الباب المفتوح في كلية الحقوق المسائية ، نظم وثائقه واوراقه وخاض الميدان مع الخائضين فقبل تلميذاً في معهد عال حقوقي يدرس القانون ، فتشبث قوياً بهذا الفوز الذي ناله في غفلة من الزمن . وكالمرأة التي تزوج في سن متأخرة تبالح في تنظيم بيتها ونظافته فكذلك السيد عبد الحميد صار يبالغ مبالغة متكلفة في نظافة كتبه وحفظها وملاحقة الاساتذة بالايضاحات والاستفسارات اما زملاءوه الصغار الوافدون جديداً الى الحياة فقد اخذوا يتندرون عليه ويلمزون كرشه ورأسه الاشيب وعرض منكيه فتقبل عبد الحميد تندرهم ولمزهم بنفس عالية منصرفاً الى دروسه وحدها . في نهاية العام رسب السيد عبد الحميد لسبب لا يعلمه غير الله وغير اولئك الاساتذة الذين تشرفوا بتصحيح دفاتر امتحانه ، فطلق الكلية وعاد الى مقبها العتيق يقتل على مصاطبه وقتاً غير ثمين .

في وقت ما كان يدعو الى الاصلاح وينادي بتحرير الوطن ويجادل بأمور السياسة ويبرز بانتخابات المجالس ، ويطالع بين الفينة والفينة كتباً لسلامة موسى وطه حسين وراشد البراوي وكتباً اخرى تفوح منها روائح الحرية التي يزكم عيرها انوف الحاكمين ، ثم ادرك بعد فترة طويلة انه قد تهادى في الكشف عن ارائه ومعتقده بأكثر مما ينبغي لموظف يكسب قوته من خدمة الحكومة وان سجوناً باستيالية صارت تستقبل منذ زمن رجالاً تهامسوا بالذي هو يجهر به ويعلن ، وان اولئك الرجال شعبوا ظلماً وتعسفا وهواناً . فقضت مضجعه اشباح الجواسيس والتقارير السرية والفصل من الخدمة والمطاردة المقلقة في الحانات والمقاهي والمكاتب .

الا ان شوقه لمطالعة جريدة (الاهالي) لم يفتّر ولم يهن في يوم من الايام ، فقد زاملها منذ صدورها واقام على مطالعتها باهتمام وشغف . في الصباح عندما يخرج الى عمله يقصد محموداً بائع الصحف فيلتقط من امامه جريدته المفضلة ويطويها بعناية ويدسها في جيب سرواله الخلفي ، وصدف ان اشار محمود ذات يوم - ان

(الاهالي) خير الصحف والناس يقبلون على قراءتها - فجزم عبد الحميد في الحال أن محمود جاسوس وصار يتاع جريدته من بائعين مختلفين ومن أماكن مختلفة حتى أنه ليمنى أن يغمض البائع عينيه ولا يشهده أية جريدة قد أختار .

وفي المكتب تبدأ هواجسه بالاستيفاق . فجريدته مطوية في جيب سرواله تتلقى حرارة فخذيه ولا يجرأ على اخراجها ومطالعتها ، فيستبد به الشوق وهو حائر متحسر ، فيقبل عليه بعض الكتبة الذين يشك عبد الحميد في حسن نواياهم ، يتدرونه سائلين - هل لديك بعض الصحف؟ - فيجيب بنبرة دفاعية - اي شيء يقرأه الانسان كلها سخف وتهريج - ويتمتم بين شفتيه - الملاعين جاؤا يتجسسون - فينبري أحدهم - عندنا (الأهالي) هل تود مطالعتها ؟ - فتجسد المصيدة أمام عيني أبو نبيل فيهتف مغتاضاً - لا أريدها . أqlام مأجورة اناس اتهازيون يهدفون الى الكراسي . وعندما يقع بصره على احدى الصحف الاخبارية الضاربة بسهم عال في ميدان التفاهة والملق ينكب عليها السيد عبد الحميد انكباً با مصطنعاً مادحاً كتابها وتبويبها ، أما (اهاليه) فثلك لا تقرأ ولا تمس حتى يكون في بيته وبين جدران غرفه الاربعة ، يقرأها بنهم وشوق متمتما بين أسنانه لدى كل فقرة تعجبه وتستهويه - حقائق دامغة ، معارضة نزيهة ، رجال نذروا نفوسهم لنصرة الحق والعدالة والديمقراطية هذه الواهمة المبالغة في التحفظ والحرص والجزع ضايقته اصدقاءه الخالص المقربين ، فكلما جلس في مقهى تفحص بدقة اطرافه الاربعة دارساً وجوه الجالسين واحداً بعد واحد محاولاً ان يحزر ايهم هو الجاسوس ، ولا تخلو جلسة من جلساته دون الاليماء الى رجل صامت بادى الانتباه - ها هو جاسوس - ويرجو جلساءه ان يديروا دقة الحديث صائحا فيهم - نعم ايها الاخوان ان بيرة فريدة انسب للمشروبات وراقصات الباراديس اعظم الراقصات ! .

وذات مرة اوقعه اصدقاؤه في الشرك الرهيب الذي يرتعد منه فرقا . أتوا

له برجل غريب مقطب الوجه صارم ماكر النظرات تعلو سيماء الفضة صرامة البوليس . جلس هذا الرجل الى جانبه وبادره دون تمهيد — هل معك جريدة (الاهالي) ؟ فاتفق عبد الحميد كمن لدغته عقرب واجاب بلسان متلجلج . .
— عفوا ايها السيد انا لا أقرأ (الاهالي) ولا أقرأ الصحف مطلقاً ولا احسن القراءة كما ينبغي -

فرد الرجل الغريب في لامبالاة باردة — بلا مداورة انك تقرأ (الاهالي) كل يوم ، وهي محفوظة الان في جيب سروالك . نحن لسنا مغفلين كما تظن ، نعرف كل شيء عن الناس ولكننا نتظر الساعة المناسبة — وتركه الرجل دون ان تأخذه الشفقة على اضطراب ابو نبيل وامتقاع وجهه . قال لنفسه في تأكيد — غدا ستبدأ المخابرات السرية وترفع التقارير بالحبر الاحمر وتستحصل أوامر تحري البيت وتقبل الشرطة السرية فينبشون وينقبون في أرجاء البيت وزواياه ومحابته ويفرغون الوسائد من الريش والاعطية من القطن ويقرأون الرسائل والاوراق وما من انسان في هذا البلد أستطاع ان ينجو من هذه الغارة الليلية المرعبة — فقام مسرعاً وشخص الى داره وفي عزمه ان يمحو اثار (جريمته) ما استطاع الى الاعحاء سيلاً . في تلك الليلة المشؤومة اضرم عبد الحميد النار في التور وملأ فوهته باعداد (الاهالي) كلها . يتصفح العدد ويقرأ العناوين البارزة ويتذكر الاحداث التي املت ذلك المقال فيتهدد بأسف ويلقى به في النار ، والقى كذلك مجموعة ثمينة من الكتب التي يخشى ان تجر عليه البلاء ، فتصاعد الدخان الكثيف الى منخريه ولوث ثيابه بالهباب ، ثم عاد الى غرفته فاخرج قرآنه الكريم وفتحته فوق المنضدة ونثر على بساط الغرفة جرائد اخبارية ونشرات دينية واعلانات سينمائية ، وقبل ان تخدم النار في التور أقبل المتأمررون على راحته وسلامة عقله . دخلوا عليه وهو منقطع مذعور يطالع تصريحاً لأحد رؤساء الوزراء العتيدين في الحكم ، فسأله أحدهم

ما هذا يا أبا نبيل أين (الأهالي) ؟ فصرخ غاضباً كأنما بود أن يسمعه حتى المارون
بالطريق — لعنة الله على (الأهالي) جريدة الزنادقة والكفار — ثم خفض صوته
وقال هامساً - الليلة يقبضون علي . طاردني أحد الجواسيس في المقهى . . آه ضاعت
وظيفتي أنعدم مستقبلي تهدم بيتي لكم كنت أحذر الجواسيس ولكم كنت
أخشاهم - وأنشأ يجهش ويندب حظه فاخذتهم الشفقة على حاله فاستدعوا له
الرجل الغريب الذي تركوه ينتظر عند الباب فشقق عبد الحميد نفساً عميقاً وكاد
يغمى عليه من هول المفاجأة .

زواج مصلحة



استيقظ السيد صلاح الدين في نحو الساعة السادسة صباحاً على دوي بوق السيارة العميق فتمطى في فراشه الوثير بتفتر وكسل - اواه اجازة شهر كامل تتقضى بمثل هذه السرعة المدهشة - هذا ما قاله لنفسه في غرابة .

ظل البوق يدوى عند الباب في ضربات شديدة مزعجة ، فصاح الاستاذ من الداخل - انتظر صبرا - القى الغطاء جانبا وازاح الستارة عن نافذة الطريق فطالعه السيارة الفخمة التي استأجرها ليلة أمس وعند عجلة قيادتها جلس سائق اشعث سمين ، اجاب في اعتذار - حسبك نائماً ييگ - فهره صلاح الدين - وهل توقظي ببوقك المزعج ؟ انحن في ثكنة - ورد الستارة الى مكانها متمتما في حلق - حيوان - رويدك ايها القساري العزيز فلا تفضب علي ، قد تقول كيف يكون هذا البطل سيداً ثم يتحول الى استاذنا ويغدو في اخر الامر ييكا . هذه مسألة سأسوق اليك حلها .

السيد صلاح الدين قاضيا او حاكما كما يطلق عليه في عراقنا العزيز ، فائنا تنقلاته وترفيعاته وتسيياته تكب له الاوامر الادارية - السيد صلاح الدين - وتنقلها الصحف بنفس النظام واذا ما يجلس الى منصة القضاء ، ويتقدم اليه المحامون لالقاء دفاع موكلهم ينعمون عليه بالاستاذية عن طيب خاطر وحتى في ساعات فراغه يسمعه الموظفون ومعلمو المدارس واولئك الذين ينادون بالتححرر

- استاذنا - ولكن هنالك رصيد كبير هائل ، هو عامة الناس والاعراب ، فالليك هي
النعمة الطبيعية الخارجة من آلاف الافواه لا ينقطع لها مد ولا يحصرها حصر
مزوجة دوما بالمسكنة والضعة والاستسلام .

في فجر ذلك اليوم انتهت اجازته . اجازة شهر كامل ابتدأت منذ انفكاكه
في السابع عشر من الشهر الماضي وها هو اليوم السابع عشر من الشهر الحالي
ميعاد مباشرته .

جلس الى المرأة وحلق ذقنه واطرى وجهه بالكريم واغتسل وتعطر وصف
شعره الجميل المفروق من الوسط وشذب بعض جوانب شاربه الصغير وشرع
بارتداء ملابسه . اولا قميصه الحريري الابيض عاقدا عليه ربطة زاهية وبعدها
البدة الشتوية الانيقة ضافياً فوقها جميعاً معطفه الجديد الذي ابتاعه قبل اسبوع . كان
له معطف سميك أسود من النوع الذي يرتديه السفراء وشيوخ البرلمان
ثم أتمته وافدة المودة فاستبدله بأخر خفيف فاتح بلون أجنحة الحمام ، فالقى
نظرة عاجلة على المرأة الطويلة اللامعة فابهجه ، قد الممشوق ووجهه المستدير
المسأل .

سارت السيارة تنهب به الارض وقد تمدد فوق مقعدها في استرخاء ، تشململ
من تحته الرفاسات القوية صاعدة هابطة ، فاتكأ مرفقه بالمسند المنحلي الناعم مطلقا
لافكاره العنان .

بدت له معالم بغداد . قنمة الكازينات والفنادق والمطاعم التي اعتاد
ارتياها أيام اجازته . كانت جميعا مغلقة الابواب مظلمة وسخة قد أضطجع عند
أبوابها نفر من المشردين التعساء قد التوت اجسادهم واختفت رؤوسهم أشبه
بالقنائف المرتعة .

عند باب المعظم ابتاع أربع صحف تمثل اتجاهات الرأي العام في البلد

فالرجل يهيمه بالمحل الاول التعيينات والترفيعات والوفيات والتنقلات واخبار اولئك الذين يمكن ان يصنعوا له خيرا أم شراً . طالع الصحف جميعاً او بالاحرى تصفحها ثم تشاغل بالنظر الى جوانب الطريق .

انقضى الشهر الممتع اللذيذ . أماسي دافئة في شريف وحداد ، بحالسات سارة مع ممبزي الوزارات ومدراء الشرطة ورؤساء الدوائر الصغيرة ثم انطلاقات ليلية الى النوادي والمراقص ومصاحبة الفنانات المذرورة وجوهن بالمساحيق فيقدم لهن سكائر حمراء مذهبة الحواشي وبولعها وهي اقواهن فتستبين شفاهن القرمزية المشتهاة . انقضى الشهر وها هي السيارة قد أجتازت آخر حدود بغداد وبرز الريف الاجرد الحزين مع نسائه الحافيات المفلقات بالصوف يحصدن الشوك ، ومضخاته المتستنة الزافرة دخانها الاسود ، لاشيء البتة يثير اهتمامه . المقاهي المشيدة بالقصب والمفروشة بالحصران المثيرة والحاكي العتيق يستتبط صوتا عميقا مخربشا وبضع مزارع متباعدة كأنها نقط من الحير وسط بحيرة ترائية لا يحصرها نظر .

غاص صلاح كرة اخرى في تأملاته . فهو حاكم يتمتع بامتيازات ويشمله قانون خاص ويرجوه أحياناً أناس ذوو وزن لتمشية أعمالهم ولكن ايكفى كل هذا؟ ان له أصحاب تلقوا العلم معه في الكلية وتخرج واياهم في عام واحد أضحوا اليوم نوابا وفي طريقهم الى الوزارة . فصديقه محمود تخطى المناصب ليس قفزا بل هرولة خاطفة . كان حاكما مثله وبوثة واحدة احتل كرسيه من كراسي النيابة .

لقيه ذات ليلة في مرقص الامباسي محوطا بشخصيات لامعة فانزوى صلاح في ركن قصي مشدوها بحظ صديقه ومكاته المرموقة وفي الالاحظات التي يشتد فيها الصخب وبتراحم الجالسون التقى بصديقه محمود وجها لوجه هتف هذا مرحبا - أهلا بصلاح .

وبكلمات موجزة شرح لصديقه انه قد تزوج ابنة رجل مرموق عضو في
الايان وصاحب فخامة وقد اضجرتة الحاكمية بالتنقل هنا وهناك في مناطق مقفرة
معدومة التسلية تفتقر لكل ما يجعل الانسان يتسم بفضل النياة وهي المجاز
المفزي الى السلطة حيث يتخمر فيه المرشحون قبل ان يغدو وزراء .

قال صلاح لصديقه في لهفة مبطنة بالحياء - اني لما اتزوج بعد وبالمناسبة
هل لها اخت ؟ أعني الزوجة المحترمة .

- أبتسم النائب في مراوغة - نعم لها أخت انضرت منها شبابا ... انها
تلميذة في معهد الملكة عالية ... هل تود ان تقول شيئاً يا عزيزي نحن جد في
الخدمة - فتلعثم صلاح الدين وصمت - كذلك . انتهت هذه المساجلة الملعونة
المشحونة بالايماءات وجس النبض .

أخيراً أشرف الحاكم على منطقة عمله . لاحت الاطلال والقبب وبرزت
البساتين المورة بالطين أشبه بالمقابر وتساعد نقيب الغربان ودب الخفاة من كل
صوب ولاح الفقر والبؤس والعناء . ليست مدينة في القرن العشرين قرن الذرة
والصاروخ بل قرية آشورية مطمورة أزيح عنها التراب فبدت اطلالها الدارسة . وفي
صالة المرافعة اقتعد كرسياً قديماً مطرزا بالمخمل البالي ، فتقدم المحامون ورئيس
البلدية وافراد الشرطة ومأمور النفوس وسواهم للسلام عليه . فتلفت صلاح يمينا
وشمالاً شاعراً أكثر من ذي قبل بوطأة الحياة في هذا المنفى المقفر ، ثم أنقلب الى منزله
فجابهته الاحجار الخشنة المتراسة في غير براعة تعزلها عن السماء سقوف من
البردي والتخيل ذات فجوات كبار تكفى لاضطجاع حيوان . تمر
الساعات في هذا المنزل بطيئة مثقلة بالعبث والضجر وازهاق الروح . على مكتبه في
البيت ينهض صف من كتب القانون والسياسة والادب أستعار بعضها من محامي
منطقته وأبتاع البعض الآخر من مكاتب بغداد الا انه لم يطالع فيها الا قليلاً .

غالباً ما يستبد به الصداق حالما يلمسها فيجد عذراً مناسباً لتأجيل مطالعته اما في هذا اليوم فقد بدت له الكتب مضيعة للوقت ، فالتعرف الى شخصية مرموقة متنفذة خير من مطالعة مئة كتاب في القانون والسياسة والادب وهذا ما فعله محمود صديقه النائب وما هو بسبيل ان يفعله بالذات .

فكر بصديقه محمود انه اللحظة من غير ريب متمتع بحديث شيق مع وزير او مدير عام يتباحث معه في شؤون الوزارة وموقف الحكومة وفي كل ساعة تاتيهِ بطاقة دعوى لاحدى الحفلات الساهرة ، كما ان زمرة من فائزات بغداد يصطدن منه المواعيد ، فامسك بالقلم وكتب لصديقه الكلمات التالية .

لا أريد ان أطيل رسالتي لقد عزمت على الزواج وانتهى الامر لا اطيق البقاء في العزلة القائلة سأكون في غاية الامتنان لو دبرت الامر كما ذكرت لي عند لقائنا في الامباسي .

الافتحيا تلميذة معهد الملكة العالية وليحيا الزواج السياسي .

ضاعت الفرصة

كان احمد يمضي في سبيله عبر الازقة الغائصة في الوحل ، فاضطر حفاظاً على سرواله الوحيد من التلوث الى رفعه بكلتا يديه مما جعل سيره مترنحاً مهدداً كل لحظة بالانكفاء على الارض . كان يقصد صديقه مصطفى وهو فراش دمى الخلق يعمل فراشا في وزارة الاشغال له بعض الدالة على مرموق يعمل مديراً في احدى الشعب . كان حامى مصطفى وشفيعه في الوزارة ، وقد التمه غير مرة ان يحشر صديقه في وظيفة كتابية متواضعة تناسب ثقافته وتحصيله دون الثانوي .

وحال ان بلغ احمد الوزارة ارتقى درجاتها العراض الضحلة ومضى في اتجاه صديقه مصطفى وهو على شبه يقين ان وعداً جديداً سيضاف الى الوعود الماضية ، وان تسويفاً آخر سيلحق بالتسويات التى خلت . رغم انه امروه عاطل منذ ستة اشهر يعاني برحاء البطالة بكل ثقلها ومحتها قال ، مصطفى في تأمل :
-انتظر قليلاً انني سأحدث الى المدير كرة أخرى .

وهم احمد ان يوقفه ويوصيه بشيء ما ، الا انه ما عثم ان تلثم وصمت ولاحظ مصطفى حيرته وتردده فأخذه الاشفاق على صديقه . جالت في خاطره فكرة الا انه كتبها مخافة ان يجرح عواطفه فغاب بضع دقائق عاد بعدها وعلى محياه سيما التفاؤل والارتياح .

- وعداً مفعولاً بعد بضعة ايام ستحصل الشواغر انك من غير ريب ستال أفضلها .

تردد احمد مرة اخرى وهم ان يقول شيئا فقلعتم وأرتج عليه ولاذ بالصمت على مضض . كان يود ان يفهم صديقه انه يقبل وظيفة فراش ، غير انه لم يجزء ، حاسباً ان صديقه سيدهش لهذا التنازل الفجائي الدال على الاتضاع والمسكنة ، فمصطفى فراش بسبب أميته وجهله وافقاره الى أي من الشهادات بينما هو في الصف الثالث المتوسط يقرأ ويكتب فالوظيفة أجدر به واليق ، تهد أخيراً :

- ماكو شاغر . ربما يكتشفون علاجاً للسرطان والسل ولن يكتشفوا علاجاً لماكو شاغر هذه البصة السرمدية يقذفونها دوما في وجه طالب العمل عليه الحزن وذهب بمزاجه فحاول مصطفى ان يرفه عنه ولم يفعل في هذا السبيل سوى ان دس درهما في جيب صديقه قائلاً في ثقة وعزم .
- تريث ان الامور تنتهي الى الاحسن

وهم مصطفى ان يضيف شيئاً ما الى كلماته فتردد ولاذ بالصمت مثلما فعل صديقه قبل دقائق ، وقال في آخر الامر بيرة حزينة مواسية - مستقبلك افضل من مستقبلي انك امروه متعلم تحمل شهادة ما وتقرأ وتكتب كما يقرأ ويكتب العلماء وثمة ألوف في دواوين الدولة يتاولون خبزهم عن طريق الوظائف تسندهم الوساطات ، كل الامور تجري على هذا الوجه .

في المساء لقي صديقه مصطفى في المقهى . كان الاسى قد بلغ باحمد حداً لا م ولم يعد في قوس صبره منزع واعتزم ان يصارح صديقه بقبول عمل فراش . وجد مصطفى مقتعداً احدى مصاطب المقهى يقرقر بنارجيلة ومضوعة امامه وينشر من فمه الدخان . كان مهنداً بعض الشيء ولم تكن عليه بذلة الفراشين تداني احمداً قليلاً ثم استجمع اطراف شجاعته وقال :

- قل للمدير انني اقبل وظيفة فراش .

فانشده مصطفى والقى النارجيلة جانبا هاتفيا في شبه غيظ .
- هكذا اذن لم لاتقل في هذا الصباح . كان بإمكانك ان تتعين هذا اليوم .
شغرت وظيفة فراش ولكنني استحييت ان اجابك لئلا تتكدر، فترددت وأثرت الصمت
غمغم احمد في يأس - استحييت ان تهزأ بي ،
هتف مصطفى في ندم - هممت ان اقول ولسكن خيطا غير منظور اعتقل لسانى
وأسكتنى ، ربما قد يكون سوء الحظ نفسه .
ردد أحمد في شبه ذهول وهو يتخذ سبيله عبر الاحوال التي تهدده بالانكفاء
على الارض - أجل انه سوء الحظ .

رجل من الصرائف

كان رجلاً ضئيلاً ناعم القد يقف على مفترق الطريق الضيق الموحد والمزدحم بشتى القاذورات العفنة ، قد وضع قدميه المحدثتين حذاء من احدى الجنود فوق قضيب السكة الفولاذي المتين وطفق يجيل النظر في سأم ونفاذ صبر كمن يتربص خبراً شيراً فاجأه .

تتشرب فوق رأسه لطنخات من السحب رمادية داكنة ضاربة الى السواد ما فتئت تتعاطم وتتسع ملتهمة في طريقها فرجات الزرقة الصاحبة المؤذنة بالزوال والتلاشي . في كل مكان من المدينة سيرفع الناس انظارهم الى السماء من العمارات الشاهقة في شارع الرشيد ، من ابراج المطار ومن قلاع الجند ومن هنا كذلك ، من هذا الدرب الضيق الموحد المثير للغثيان .

وقف الرجل الضئيل صامتاً اخرس يستدل من اختلاجات شفثيه والتماع النور في عينيه واضطراب تنفسه انه يعاني وطأء قلق ثقيلة شاقة . قد ضم تحت ابطيه خشبتين صغيرتين تلتف عليهما خرقتان رقيقتان واحدة خضراء والاخرى حمراء لا يخطئ المرء في حسابه انه احد عمال السكة المكلفين بتزويد القطار بالاشارات عند دخوله المحطة وخروجه منها .

كان المكان غاصاً بالاطفال من مختلف الاعمار ، يدو انهم قد أعدموا كل وسيلة تدخل المسرة الى نفوسهم غير المتأرجح بقضبان السكة في المواضع المجوفة المعدة لمسيل المياه الوسخة ، فهم يتأرجحون ويتقلبون وينبطحون وينثنون والرجل يحذرهم طيلة نهاره مخافة ان تفاجأهم القاطرة فتطحنهم بمجلاتنها ، وكانت القطر ذاهبة أبية ينطلق صغيرها الحساد ، حاملة الدمار لكل من تمسه بحديدتها ،

كان على الاطفال جلايب فقط فكلما تأرجحوا وتقلبوا انحسرت الى ما فوق بطونهم فتكشفت من تحتها سيقان نحيلة مخضرة فقيرة بالدم .

على جانبه اربعة توابيت من الخشب الابيض ملقاة فوق الوحل . اثنان جديدان مئينان غائصة فيهما المسامير ، واثنان قديمان مهشمان نافذة منهما المسامير . هذه التوابيت معدة لنقل الموتى الفقراء الى مرساهم الابدي تبرع بها بعض أهل الخير . حتى هذه الاشياء المحزنة لم تتج من عبث الصبيان كان بعضهم يشب فوقها او يتربع بداخلها او يتمدد فوقها مسبلا يديه ومغمضا عينيه مصطنعا ضجعة الميت . كان يقف الرجل على مقربة دائية من التوابيت طيلة ساعات عمله . وقد شهد عشرات المرات كيف يقبل الناس مولولين ناثحين فيختطفون تابوتا ويذهبون به ، يتخيرون دوما التابوت الجديد المتين ثم يعيدونه الى مكانه كرة اخرى بعد بضع ساعات وعلى خشباته تنف صغيرة من القطن .

اقبل القطار يهدر ويدمدم باعثا صفيره العاوي المروع ، كان يخترق دربا لزقا مطينا ، تقوم على جانبيه بيوت خفيفة السطوح متأصصة ملزوزة ، قد لطح الوحل أبوابها المفرقة ونوافذها نصف المزججة والمغلغ نصفها الآخر بالورق والمقوى وضروب الحرق . كانت السكة تتلوى على الدرب أشبه بمسير الحلزون فيصطدم صفير القطار بالجدران المتقاربة فتعاظم شدته ويقوى صداه .

كان الرجل يفكر في كآبة واستخراق ، فطرد هواجسه في الحال وهب على خرقة متمجلا في نشرها امام القطار المتقدم ، فتلفت حواليه في دعر مخافة ان يغفل عنه احد الصبيان وتقع كارثة . كان بعضهم يتحدى الرجل . بل ويتحدى حتى القطار نفسه فيظل متأرجحاً لاهيا ، واذا ماتندو العجلات نحو متر منه ينزلق منها ضاحكا مضجعا فيصفق له الآخرون ويهتفون . .

شرعت قطرات المطر تنقر الارض الندية وصحبتها ريح رفيقة مالبشت ان جاشت وعتت ، فلطمت مصاريع النوافذ والابواب وغدا الطريق يقفر باستمرار

وانجر الصبيان الى بيوتهم ، فلملم الرجل جوانب معطفه وشده قويا حول جسده المرتجف المبلل وشخصت أبصاره الى الصرافف الثانية حيث ينسدل على طول المدى ستارة مهوزة تسجها قطرات الماء المتساوقة الوقع ، كانت تلك الصرافف تتلقى المطر بسطوحها المسنمة فتغتسل ببعضه وتبتلع البعض الآخر في جوفها الالهل بالأدميين . كانت صريفته قائمة بين تلك الصرافف وليس من انسان يستطيع تمييزها عن الاخرىات ، فقد وفد ذات يوم الى هذا المكان جمهور حاشد من البشر المطرودين المهانين ، فاوتدوا ركائزهم ونشروا فوقها الحصان وأقاموا تحتها كالأسرى . لم تكن صريفته في مدى بصره وهذا ما أورثه القلق والكرب في ذلك اليوم .

بالامس كانت زوجته مريضة ، آلمت بها حمى مروعة طرحتها فراشا ، وعند منتصف الليل اعتدل مزاجها ففتحت عينيها وشرعت تصفي في ذهول الى اخباره وأحاديثه . كان يشاع بين سكان الصرافف ان الحكومة قد ازمعت انشاء مساكن لهم لترفع من مستوى آدميتهم ، وان نحو من ٣٠ ألف انسان يحيا على شاكلتهم وان هذه المساكن الجديدة ستشيد بالاجر وتحتوي على غرفتين وسيكون لهم مستوصف وطبيب يصرف لهم الدواء كما ان مدرسة للصبيان ستشيد أيضا فيؤمها أطفالهم كما يؤم اطفال المدينة مدارسهم ، ويزعمون ان حياة جديدة ستشع انوارها تنظم موازين العدالة وتنصف المظلومين وتعيد للانسان قيمته ؛ ففكرت المريضة هل سيتمد بها العمر الى ذلك اليوم .

اما الرجل المبلل الرازح بالهموم فكان يفكر بزوجه ، ان ماء المطر سينفذ الى الصريفة ويبلل فراش المريضة فيؤذى صحتها ، تمثلها الرجل في ذهنه المضطرب كانت في الليلة الفائتة تبسم في مراة بشفتيها الياسين المشققتين . وكان المصباح الكدر الداخن يلقي نورا مصفرا يساقط على وجهها الصغير فيزيد شحوبه وكانت تمسد عنقها باصابع مرتعشة خالية من اللحم ، فجثا الى جوارها ينتحب تارة

ويغمغم بكلام لامعنى له تارة اخرى .

اخترق المطر معطفه ونفذ الى سترته وقميصه ، وسال على رأسه وصدغيه وانفه واحس ان تحت قدميه نوافير تبقيق وتزيد تتمم — يا الهي ان حالي تشبه حال الكلاب ، حتى الكلاب لم تعد تترأى في هذا الهيجان المطري أما التوايت الاربعة فقد بقيت مكدسة في مكانها ، اذ لم تقع لاحد من الناس حاجة بها قد انكمشت فيها نف القطن فعدت اشبه بكرات الحلوب .

كان احد جيرانه يتقدم نحوه من مكان بعيد ، دافعا بدنه تحت وابل المطر شاقا طريقه وسط الاحوال . لم يتبين الرجل ملامحه بوضوح بيد ان سرعة سيره قدفت الرعب في قلبه تقدم جاره وهو يلهث لهاثا شديدا صاح في هلع — عاصي عجل كلثومة تلفانة — كان عاصي قد نشر خرقة الخضراء وطفق يلوح بها بيديه المبتلة وقد اظلمت اساريره اظلاما تاما ، فزقق القطار وارثجت الارض وهدرت الماكنة باحتدام وانطلق الزفير الاسود المشبع بماء المطر يذوب في الفضاء .

مضى عاصي مع جاره والخرقتان ما تزالان مطويتين تحت ابطه ، فاستجلاه في الطريق — كيف حالها ؟ هل قضى الامر ؟ فهز الجار رأسه في أسى فزفر عاصي — بجرس متحب مخفوض — أيه كلثومة فقدتها ، بالامس كانت تحلم بالبيت الاجر والمدرسة والمستوصف والطبيب . . . هكذا أذن .

وفي ظلمة الصريفة الدامسة المغرقة بالعمة الكثيرة العاصرة للقلب لقي زوجته مسجاة في جلال على سريرها قد أغلقت عينها باباء واطمئنان فجثا عاصي الى جوارها مطلقا لدموعه العنان ومن خلال الغشاء البراق المضرب بدموع عينيه لمح تابوتا جديدا يدخل الصريفة فأرتعد عاصي من رأسه الى أخمص قدميه . كان الماء يقطر من التابوت ولم تكن لعاصي أية حاجة للتمتع فيه فطالما لقيه مطروحا قرب السكة يقفر فوقه الاطفال .

طبع على نفقة مطبعة الثقافة
بغداد - شارع الرشيد مقابل سينما الحمراء - تلفون ٨٧٢٣٧

ثمن النسخة ٧٠ فلساً